

وَطَنُ يُسْكِرُ قَلْبِي

— بقلم —
رحمة مَحَمَّد



وطنٌ يسكن قلبي

تأليف: رحمة محمد

الإهداء

إلى اليمن...

إلى الجبال التي علمتنا الصبر،

وإلى الأمهات اللواتي علمتنا الحب،

وإلى كل قلب حمل الوطن معه أينما ذهب...

أهدي هذا الكتاب.

❖ كلمة المؤلفة ❖

بدأت رحلتي مع الكتابة منذ سنة، وكانت كلماتي الأولى ترى النور تحت الاسم الأدبي "ملكة الثلج".

وصدر لي كتيب بعنوان:

"على ضوء القمر... بقايا قلب"

وكان ذلك بداية الطريق.

أما هذا الكتاب، فهو ثمرة مشاعر وذكريات وحكايات حملها القلب طويلاً، فخرجت على هيئة خواطر وقصص تسكن صفحات هذا العمل.

فهذا الكتاب ليس مجرد نصوص مكتوبة، بل محاولة للاحتفاظ بشيء من الذاكرة...

ذاكرة وطن.

وذاكرة أناس.

وذاكرة أيام ما زالت تسكن القلب رغم مرور الزمن.

وقد وُلدت معظم هذه الصفحات من واقع عشته أو سمعته أو رأيته، ومن تفاصيل ما زالت حاضرة في البيوت والقرى والقلوب. وربما امتزجت بعض الأحداث بالأسلوب الأدبي، لكن المشاعر التي تحملها هذه الصفحات صادقة، والذكريات التي تسكنها حقيقية.

كتبت هذه الصفحات محبةً لليمن، ووفاءً للحكايات التي عاشت في بيوتنا وقرانا وذاكرتنا، وإيماناً بأن للكلمة قدرة على حفظ ما قد يغيبه الزمن.

أهدي هذا الكتاب إلى كل قلبٍ ما زال يحمل وطنه في داخله، وإلى كل من يسكن الوطن قلبه أينما كان.

رحمة محمد

❖ الفهرس ❖

الإهداء.....3

كلمة المؤلفة.....4

المقدمة11

اليمن... وطن شهد له الله ورسوله.....12

عائدون إلى الوطن 24

- عادوا لكن بلا طرقات.....27

- لم يمت لكنه لم يعد.....30

- على بُعد خطواتٍ من الوطن.....32

- عاد ولم يجد أباه.....35

- عاد فوجد الوطن غريبًا.....38

- العريس الذي لم يَعد.....41

- رحلة لم تكتمل.....43
- على ضفاف السيل... حين يتقدّم القلب على الحياة.....46
- غريبٌ بين الطريق والوطن.....49
- خاتمة الفصل.....53
- حين تقف المرأة... يقف الوطن57
- المرأة اليمينية: قلب الوطن النابض.....54
- الجبال والأرض تصنع الإنسان.....62
- امرأة تصنع المستقبل.....64
- صمتها يبني الوطن.....67
- حين تصنع المرأة المستحيل.....69
- حارسة الأنفاس.....70
- بين قبر ومهد.....74
- حين تكون المرأة الأب والأم والوطن.....76
- أم تجمع الأحلام.....79
- غرزة الأمل وبناء.....89
- بصيرة القلب 90
- خاتمة الفصل.....91

93انتظار الأمهات والزوجات

- أمهاتٌ ينتظرن عند الباب.....96

- قبل أن تغادر الحياة.....98

- الذي لم يعد... ولم يُودّع.....102

- استودعتك الله.....105

- أمّ تنتظر بين الموت والأمل.....107

- طفولة لم يشهدها.....110

- موعد المكالمة.....118

- عشر سنوات من الانتظار.....126

- خاتمة الفصل.....133

- طفولة بلا أب137

- حين عاد الأب في الصورة فقط.....139

- كانت تنتظر كلمة: ابنتي.....141

- المقعد الفارغ.....145

- الرسالة التي كبرت معه.....148

- حين غاب الأب كبر الابن.....153

- الشهادة التي انتظرها أكثر مني.....156

- خاتمة الفصل.....159

- الأمل الذي لا يموت161

- وطنٌ يتكئ على الجبال.....163

- سيمفونية المطر.....167

- مدرجات تصعد نحو السماء.....171

- ليلة رمضان في الحارة.....174

- الأسواق في اليمن.....180

- ليلة العيد.....186

- صباح العيد.....189

- خاتمة الفصل.....194

-رسالة إلى الوطن196

اليمن...

ليست مجرد أرض نولد فوقها،

بل هي هوية تمشي في دمنا،

ونبض لا يتوقف في صدورنا.

— رحمة محمد

المقدمة:

اليمن: الهوية التي تسكننا قبل أن نسكنها

ليس الوطن قطعة أرض نولد عليها فحسب،
بل هو أول اسم يسكن في القلب قبل أن نتعلم النطق،
وأول انتماء نتشبت به حين تضيق بنا الحياة.

الوطن هو الأم حين نبتعد،
والحزن حين نتعب،
والمرأة التي نرى فيها ملامحنا الحقيقية.

واليمن...

ليست مجرد وطن بالنسبة لي،
إنها هوية تمشي في دمي،
ونبض لا يتوقف في صدري.

حين أقول "اليمن"،

لا أنطق حروفاً،

بل أستحضر تاريخاً، وجبالاً، وسحاباً يلامس القمم،

وأستحضر وجوهاً نقية،

تبتسم رغم التعب،
وتصبر رغم القسوة.

❖اليمن... وطن شهد له الله ورسوله❖

وطني... أصل العرب، اليمن السعيد.
أرض سبأ وحمير، أرض الحضارة وعبق التاريخ،
أرض الشجاعة والكرم، والإمبراطورية العريقة.
ذُكرت في القرآن، وباركها النبي ﷺ،
أرض سبأ والجنيتين، قال تعالى:
{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}
ويذكر الله قوم تبّع، ملوك اليمن وسلسلة التبابعة، فيقول:
{وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَعا}
يقول:

{أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَعا}

أرض بلقيس التي علمتنا أن القيادة حكمة قبل أن تكون قوة،
ووصفت بالحكمة والإيمان.

فقد شهد رسول الله ﷺ لليمن شهادة لا يُجادل فيها، فقال: «اتكم اهل اليمن
أرق قلوباً وألين أفئدة أليمان يمانى والحكمه يمانية "

وقال :

إن الله استقبل بي الشام، وولى ظهري اليمن، وقال لي: يا محمد، إني جعلت لك ما تجاهك غنيمة ورزقا، وما خلف ظهرك مدداً.

ودعا لها دعاء البركة:

«اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا».

وبيّن قرب أهلها منه يوم القيامة، فقال:

«إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن».

وأرض الأنصار الذين علموا الدنيا معنى النصرة والوفاء.

وأوصى رسول الله ﷺ بالأنصار، وهم من أصول يمنية، فقال:

«أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعييتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم».

مهد الفتوحات الإسلامية،

وحاضرة في الاستكشافات الجغرافية،

وحاضنة للرجال الذين حملوا الدين شرقاً وغرباً.

هنا، في هذه الأرض،

لم يكن الإنسان مجرد ساكن،

بل كان شريكا في صناعة التاريخ.

ملوكٌ مرّوا من هنا،

حضارات قامت وسقطت،

لكن الهوية بقيت.

الهويه...سلوك يومي

هوية اليمني ليست شعارًا،

بل سلوكًا يوميًا.

في الكرم الذي يُعطي بلا حساب،

في الشهامة التي لا تنتظر مقابلًا،

في الغضب إذا مُسّت الكرامة،

وفي الدموع التي تخفى خلف ابتسامة قوية.

اليمني قد يختلف،

قد يغضب،

قد يتباعد،

لكن إذا نودي للوطن،

عاد قلبه قبل جسده.

اليمن مقبرة الغزاة

لم تكن يومًا أرضًا سهلة،

ولا شعبًا يُكسر.

كل من حاول أن ينتقص منها،

غادرها وهو يعلم أنه واجه شعبًا لا يشبه غيره.

ومع ذلك...

أكثر ما يوجعني اليوم،

ليس قوة العدو،
بل تفرّق الإخوة.
فلو اجتمع أبناؤها،
لو توحدت كلمتهم،
لما استطاع أحد أن ينال منهم،
ولو اجتمع الإنس والجن.
أنا لا أكتب عن وطن مثالي،
بل عن وطن حقيقي،
تعب ... وتألم ...
لكن لم يفقد روحه.

اليمن في الغربية

أغرب ما في اليمن...
أنك حين تبتعد عنها،
تكتشف أنك لم تبتعد.
هناك يمن صغيرة تسكنك.
في لهجتك.
في دعائك.
في حنينك المفاجئ لرائحة الخبز،
لصوت الأذان بين الجبال،

لصوت أم تنادي ابنها من نافذة عالية.
كثيرون خرجوا بحثًا عن رزق،
عن أمان،
عن مستقبل،
لكنهم حملوا الوطن في حقائبهم دون أن يشعروا.
الوطن لا يُنسى،
حتى لو أرهقنا.

الألم... الذي لا يلغي الانتماء

نعم، اليمن اليوم متعبة.
البيوت شهدت دموعًا،
والشوارع شهدت فراقًا،
والأمهات شهدن غيابًا طويلًا.
لكن الألم لا يمحو الهوية،
بل يختبرها.
أحيانًا أشعر أن الوطن ينادينا:
لا تتركوني وحيد.
فالوطن ليس مسؤولية الحكام فقط،
بل مسؤولية القلوب.
بلقيس... حين كانت الحكمة أنثى

في تاريخ اليمن،
لم تكن المرأة ظلًا خلف العرش،
بل كانت العرش نفسه.
بلقيس، ملكة سبأ، ليست مجرد اسم في كتب التاريخ،
بل نموذج خُلد في القرآن،
ليثبت أن القيادة ليست حكرًا على جنس،
بل على عقل راجح وقلب حكيم.
قال تعالى:
﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.
امرأة...
تملك.
وتؤتى من كل شيء.
ولها عرش عظيم.
لم يُخفِ القرآن كونها امرأة،
بل ذكره أولًا،
وكأن في ذلك رسالة واضحة:
القيمة في الكفاءة، لا في النوع.
وحين جاءها التحدي،
لم تتصرف باندفاع،
ولم تستعرض القوة،

بل جمعت قومها وقالت:

{قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ}

هذه هي الشورى...

وهذه هي القيادة التي لا تستبد.

قالوا لها بثقة القوة:

{نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ}

لكنها رأت أبعد من الحرب،

وأعمق من المواجهة.

قالت بحكمة تدرّس حتى اليوم:

{إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَقْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً}

أي عقل هذا؟

أي بصيرة هذه؟

اختارت الدبلوماسية بدل الدم،

والعقل بدل السيف:

{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}

وحين ظهر لها الحق،

لم تتكبر،

لم تُصرَّ على منصب،

لم تحارب لأجل الكرسي.

بل قالت في خشوع:

{رَبِّ إِي ظَلَمْتُ نَقْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

بلقيس... لم تكن الملكة الوحيدة.
التاريخ اليمني لم يُنجب امرأة واحدة قادت،
بل عرف أكثر من تاج أنثوي فوق عرش الحكم.
بعد قرون طويلة من سبأ،
وفي زمن الدولة الصليحية،
برز اسم امرأة أخرى حكمت اليمن بحزم وذكاء سياسي نادر،
هي أروى الصليحي.
لم تكن مجرد زوجة ملك،
بل كانت الحاكمة الفعلية،
تدير شؤون الدولة،
وتخطب باسمها في المساجد،
ويضرب اسمها على المنابر،
في زمن لم يكن فيه ذلك أمراً مألوفاً.
حكمت لعقود،
وأثبتت أن الحكمة ليست زمناً مضي،
بل قدرة متجددة في المرأة اليمنية.
وقبلها وبعدها،
عرفت اليمن نساءً في الحكم والنفوذ،

كـ أسماء بنت شهاب
التي شاركت في إدارة الدولة،
وكان لها حضور سياسي واضح في عصرها.
إذن...

ليست بلقيس أسطورة يتيمة،
ولا أروى حالة نادرة،
بل هو تاريخ يؤكد أن المرأة في اليمن
لم تكن يوماً هامشاً.
في أرض أنجبت بلقيس،
وقادت فيها أروى دولة،
لا يمكن أن تكون المرأة ضعيفة.
وهنا يتضح معنى الهوية:
أن جذور القوة في المرأة اليمنية
ليست طارئة،

بل ضاربة في عمق التاريخ.

فالمرأة التي اليوم

تحمل بيتها على كتفها،

وتصبر،

وتعمل،

وتحمي أبنائها،

إنما تسير على خطى ملكاتٍ سبقنها.

التاريخ لا يُكتب بالرجال وحدهم،

واليمن لم تُبنَ بسواعد الذكور فقط،

بل بعقول نساء

كنّ إذا وقفن...

وقف الوطن معهن.

المرأة اليمنية عبر التاريخ

وهكذا كانت المرأة اليمنية منذ القدم:

قائدة،

مستشارة،

حكيمه،

وقادرة على الاعتراف بالحق.

واليوم...

حين أرى المرأة اليمنية تصبر،

تربي،

تعيل،

تحمي بيتها في غياب الرجل،

أرى في عينيها شيئاً من بلقيس.

كأن التاريخ لم ينقطع،

بل تبدلت الظروف فقط.

فالمرأة في اليمن
ليست تابعًا،
بل شريكة في حمل الوطن.

بين الروح والوطن

أحيانًا،
أشعر أن اليمن تشبهني.
قوية من الخارج،
متعبة من الداخل،
لكنها تبتسم.
كلما ضاقت بي الحياة،
أتذكر أنها صمدت أكثر مما أتحمل أنا،
فأستحي من ضعفي،
وأقف من جديد.

رسالة داخل الفصل

إن اجتمع اليمنيون،
لن تهزم هذه الأرض.
لن يستطيع أحد أن ينال منها.

فهي مقبرة الغزاة،
لكنها تحتاج أن تكون أيضاً
مهد الوحدة.
ليس الخطر في الخارج،
بل في التفرّق.

ختام للفصل

أريد لهذا الفصل أن يكون مرآة.
مرآة يرى فيها اليمني نفسه،
ويشعر بالفخر،
لا باليأس.
أريد أن يتذكر القارئ
أن الوطن ليس فقط أرضاً نطالب بحقوقها،
بل هوية نحافظ عليها.
وإن سئلت يوماً:
من أنت؟
لن أذكر اسمي أولاً...
سأقول:
أنا من اليمن.

عائدون إلي الوطن:

لكل غريب..

حنينٌ لا يهدأ، ونبضٌ لا يستريح،

إلا حين يشمُّ رائحة طين بلاده."

رحمة محمد

عائدون إلي الوطن

لم يخبرنا أحد أن الوطن قد يؤلمنا...
كنا نظنه دائماً حضاناً لا يخذل، وسماً لا تعتم.
لكننا كبرنا، واكتشفنا أن حتى الأوطان تملك قسوة الأم حين تضطر لتقوية
أبنائها.
أحياناً يضيق بنا المكان الذي أحببناه،
نشعر أن الجدران التي شهدت طفولتنا أصبحت شاهدة على صمتنا أيضاً.
نمشي في الطرقات ذاتها،
لكننا لا نعود الأشخاص أنفسهم.
هل يتغير الوطن؟
أم نحن الذين تغيّرنا؟
حين يوجعنا وطننا، لا نهرب منه...
نهرب إليه.
نبحث في هوائه عن نفس أعمق،
في ترابه عن طمأنينة ضاعت،
في جباله عن شيء يشبهنا حين كنا أقوى.
قد نخاف من خيبته،
من تعب أيامه،

من صمت لياليه الثقيلة...
لكننا لا نتخلى عنه.
لأن بيننا وبينه علاقة لا تفسر:
هو يسكننا كما نسكنه.
حين يوجعنا وطننا،
لا يعني ذلك أنه توقف عن احتضاننا...
بل ربما كان يعلم أننا سنكبر قليلاً بعد هذا الألم،
وسنعود إليه أكثر فهماً،
وأكثر امتناناً.
فالوطن الذي لا يختبرنا،
لا يصنع فينا قوة.
والوطن الذي لا نشواق إليه رغم التعب،
لم يكن يوماً يسكن القلب حقاً.
لكن ليست كل عودة تشبه اللقاء...
بعضهم يعود ذكرى،
وبعضهم يعود دعاءً في صدر أم،
وبعضهم يعود وطنًا كاملاً يسكن الحكاية.
حين يوجعنا وطننا...
لا يعود الجميع إليه بأقدامهم،
لكنهم يعودون إليه بأسمائهم،

بأحلامهم التي بقيت معلقة بين السماء والأرض.

ومن هنا...

تبدأ الحكايات.

✧ عادوا... لكن بلا طرقات ✧

” حارتنا،

لم يكن رمضان مجرد شهر للعبادة فقط...

بل كان موعداً للعودة إلى الوطن.

كانوا يعيشون في السعودية،

يعملون ويكدحون بعيداً عن الأرض التي تحمل قلوبهم.

لكن قبل الهلال بيومين، خططوا للعودة إلى بيوتهم في اليمن.

سيارة واحدة،

قلوب كثيرة،

وصناديق ممتلئة بالملابس والهدايا والمواد التي اشتروها لأهلهم.

لم يكونوا عابرين...

كانوا أبناء بيوت تنتظرهم بفارغ الصبر.

في الطريق،

كانت الأمهات تهيئ الأطباق الأولى،

والأطفال يسألون كل ساعة:

“وصلوا؟”

لم يصلوا.

لم تتأخر السيارة قليلاً فقط...

تأخر الصوت،

وتأخر الخبر،

ثم جاء الخبر دفعة واحدة.

حادث.

طريق لم يمهلهم فرصة.

نهاية لم تكن في الحساب.

ماتوا جميعاً.

ليس بيتاً واحداً بكى،

بل بيوت.

أبواب كثيرة قُتحت على صدمة واحدة،

وأمهات كثيرات جلسن في اللحظة نفسها،

وكأن الزمن قرر أن يتوقف في حارتنا.

الهدايا التي كانت في السيارة

لم تفتح.

الملابس الجديدة لم تلبس.

ورمضان دخل،

لكن بلا أصواتهم.

الأطفال لم يفهموا بعد...
حاولوا الاتصال بهم،
رفعوا هواتفهم عدة مرات،
انتظروا أصواتهم التي لم تأتي،
وعيونهم تتسع بالدمع كل ساعة.
الأمهات جلسن على أبواب البيوت،
ينظرن إلى الطريق وكأن أي لحظة قد تأتي أرواحهم المفقودة،
لكن الطريق ظل صامتًا،
والساعات تتحول إلى أيام،
والأيام إلى ألم لا ينتهي.
كان من المفترض أن يكون شهر لقاء،
فصار شهر عزاء.
منذ ذلك العام،
لم يعد الطريق مجرد مسافة بين دولتين...
صار ذكرى ثقيلة،
وصار الانتظار خوفًا.
وصار كل عائد إلى الوطن يحمل معه قلبًا يحذر الطريق،
ويعرف أن الغربة أحيانًا لا تنتهي بالعودة...

✧ لم يمت... لكنه لم يعد ✧

لم يكن يريد أن يرحل.
كان في العشرين من عمره،
يحمل غضبًا أكبر من سنواته،
وحلمًا أصغر من واقعه.
في كل مساء تقريبًا،
كان الشجار يتكرر بينه وبين والده.
"إلى متى ستبقى هكذا؟"
"أنت تأكل وتشرب ولا تعمل."
كان يعمل فعلًا في بلده،
لكن الدخل كان قليلًا،
والكلمات كانت أقسى من قلة المال.
لم يكن كسولًا كما قيل له،
كان فقط شابًا يحاول أن يجد مكانه في وطن ضاقت فيه الفرص.
وفي يوم غادر.
قال إنه ذاهب إلى المملكة العربية السعودية،
كما يفعل كثير من أبناء اليمن
حين يبحثون عن فرصة عمل تحفظ كرامتهم.
غادر وهو غاضب،

يحمل في قلبه رغبة واحدة:
أن يعود يوماً أقوى،
ليثبت أنه لم يكن عبثاً.
في البداية، كان يتصل.
كانت أمه تسمع صوته وتبكي خفية.
كان والده يسأل عنه دون أن يعترف بالشوق.
ثم بدأت المسافات تكبر.
الاتصالات أصبحت أقل.
الرسائل أقصر.
والصوت أبرد.
هو لم يمت.
لم يختفِ.
لكنه اختار ألا يعود.
ربما لأن الغربة صارت أهون من سماع الكلمات القديمة.
وربما لأنه خاف أن يعود كما ذهب...
دون إنجاز يُرضي كبرياءه.
كبر هناك.
وتقدم به العمر 13 سنة بعيداً عن الأزقة التي ربّته.
وفي البيت،
كبر الصمت أيضاً.

الأب لم يعد يذكر كلمة "كسول".

والأم لم تتوقف عن الدعاء.

والباب ما زال يُفتح أحيانًا على أمل غير معلن.

هكذا يترك بعض اليمنيين وطنهم،

لا كرهًا له...

بل هروبًا من ضيق داخلي وخارجي.

ومنهم من يعود محمّلًا بالنجاح.

ومنهم من يعود مكسورًا.

ومنهم من يبقى حيًّا...

لكن خارج الحكاية.

هو لم يمت.

لكنه لم يعد.

✧ على بُعد خطواتٍ من الوطن ✧

ثمانية عشر عامًا...

مدة طويلة تكفي ليكبر الأطفال، ويتغيّر الناس، وتتبدل الأزقة والبيوت.

ثمانية عشر عامًا قضتها امرأة يمنية بعيدًا عن وطنها، في المملكة العربية السعودية، إلى جانب زوجها وأسرتها.

كانت تعيش حياة مستقرة، لكن شيئاً في داخلها ظل ناقصاً.
اشتاقت لصوت أهلها، لجلسات العائلة، لأحاديث الجارات، للحارة التي
حفظت خطوات طفولتها، وللوطن الذي لم يغادر قلبها يوماً.
ومع مرور السنين، كبر الشوق حتى أصبح حلمًا يوميًا.
كانت تقول: "أريد أن أرى أهلي... أن أجلس بينهم... أن أسمع أصواتهم دون
هاتفٍ أو شاشة."
وأخيرًا... جاء اليوم الذي انتظرته طويلًا.
قررت العودة إلى اليمن.
كان الفرح يملأ القلوب.
أخوها الأكبر أرسل ابنه ليعود معها إلى الديار، والعائلة بدأت الاستعداد
لاستقبالها.
في البيت، اجتمع الأقارب.
أعدت الذبائح، وتجهزت الولائم، وامتلأت المجالس بالأحاديث والضحكات.
كانت أمها تعدّ الساعات، وإخوتها ينتظرون عند الأبواب، والكل يترقب لحظة
الوصول.
بعد ثمانية عشر عامًا من الغياب، لم يعد يفصلها عن أهلها سوى ساعات
قليلة.
كانت داخل الأراضي اليمنية بالفعل.
اقتربت من الوطن.
اقتربت من البيت.
اقتربت من الحزن الذي اشتاقت إليه سنوات طويلة.
لكن القدر كان ينتظر في الطريق

وقع حادث سير.
حادث واحد...
بدل كل شيء.
وفي لحظات، تحولت رحلة العودة إلى فاجعة.
توفيت المرأة.
ونجا ابن أخيها.
أما العائلة التي كانت تنتظرها بالفرح، فاستقبلت الخبر بالذهول.
الذبائح التي أعدت للاحتفال، قدمت للمعزين.
والمجلس الذي كان مهياً للترحيب، امتلأ بالبكاء.
والبيت الذي انتظر ضحكتها، استقبل صمتاً ثقيلاً.
عادت فعلاً إلى وطنها...
لكنها عادت محمولةً على الأكتاف.
لم تسلم على أمها.
لم تعانق إخوتها.
لم تسمع أصوات أهلها التي اشتاقت إليها سنوات طويلة.
وصلت إلى الديار...
جثماناً.
وبقيت قصتها شاهداً على أن بعض الناس يقطعون آلاف الكيلومترات شوقاً
إلى الوطن،
ثم لا يبقى بينهم وبينه سوى خطوات...
لكنهم لا يصلون.

✧ عاد... ولم يجد أباه ✧

غادر إلى الغربة كما يفعل كثير من الرجال في اليمن...
ليس حبًا في البعد،
ولا رغبةً في ترك أهله،
بل لأن الحياة كانت أثقل من أن تحمل بيدٍ فارغة.
كان والده يوم سفره يقف عند الباب،
يحاول أن يبدو قويًا،
لكن عينيه كانتا ممتلئتين بذلك الحزن الذي يعرفه الآباء حين يودّعون
أبناءهم.
قبّل يده،
وقبّل رأسه،
وسمع منه كلمته الأخيرة قبل السفر: "انتبه لنفسك يا ولدي."
ثم رحل.
في الغربة،
كان يعمل طويلًا،
يتعب كثيرًا،
ويؤجل العودة كل مرة وهو يقول: "حين تتحسن الظروف سأرجع."

لكن الغربة لا تمنح الناس الوقت كما يظنون.

في ليلةٍ ثقيلة،

رنّ هاتفه.

صوتٌ مرتبكٌ...

دعاء طويل قبل الكلام...

ثم جملة واحدة كسرت شيئًا داخله: "أبوك توقى."

تجمّد.

شعر أن المسافة بينه وبين الوطن أصبحت أكبر من الاحتمال.

لم يستطع العودة سريعًا.

الحدود، الطريق، المال، والغربة... كلها كانت أقوى من قلبه في تلك اللحظة.

وفي اليمن،

كان الرجال يحملون جثمان والده إلى المقبرة،

بينما هو بعيد...

ينظر إلى شاشة هاتفه،

كأنها لنقل عزاء لا يخصه.

لم يقبل جبين والده للمرة الأخيرة.

لم يمسك يده الباردة.

لم يشارك في تشييع جنازته.

ولم يسمع صوت التراب وهو يغلق قبره.

كل ما استطاع فعله...

أن يبكي بصمت.
مرت السنوات بعد ذلك ببطء ثقيل.
وحين عاد أخيراً إلى الوطن،
كان يحمل حقيبة كبيرة،
وقلباً أكثر فراغاً من أي وقت مضى.
دخل البيت...
كل شيء بدا كما تركه: الجدران،
رائحة القهوة،
المجلس القديم...
إلا والده.
لم يجد الرجل الذي كان ينتظره عند الباب دائماً.
لم يسمع صوته يقول: "الحمد لله على السلامة يا ولدي."
كان البيت ناقصاً بطريقة لا توصف.
وفي صباح اليوم التالي،
ذهب إلى المقبرة.
وقف أمام قبر والده طويلاً،
صامتاً،
كأن السنوات كلها سقطت فوق كتفيه دفعة واحدة.
تمنى لو أن الغربة كانت أرحم،
لو أنه عاد أبكر،

لو أنه رأى وجه والده مرة أخيرة،
لو أنه حضنه قبل الرحيل.
لكن بعض الأمنيات تأتي متأخرة...
متأخرة جدًا.

هكذا يعيش كثير من المغتربين في اليمن:
يركضون خلف لقمة العيش،
ثم يكتشفون أن الغربة لا تسرق العمر فقط...
بل تسرق اللحظات التي لا يمكن أن تعود أبدًا.

✧ عاد... فوجد الوطن غريبًا ✧

لم يغادر لأنه غاضب،
ولا لأنه مطرود من حلمه.
غادر لأنه أراد أن يساعد أهله،
أن يبني بيتًا صغيرًا،
أن يدرس أخته،
أن يخفف عن والده تعب السنين.
سافر إلى المملكة العربية السعودية وهو في الخامسة والعشرين.
كان يقول دائمًا:
"سنة أو سنتان... وأعود."

لكن السنوات لا تُعدّ في الغربية كما نعدّها هنا.

مرت خمس.

ثم سبع.

ثم عشر.

كان يرسل المال بانتظام،

يبني غرفًا في البيت،

يشتري أرضًا صغيرة،

ويؤجل عودته كل مرة بحجة:

“بعد هذا المشروع فقط.”

وحين قرر أخيرًا أن يعود إلى اليمن،

لم يكن أحد ينتظره كما تخيل.

أخته تزوجت منذ سنوات.

والده كبر ومرض.

وأمه لم تعد تقوى على الوقوف طويلًا عند الباب.

وأبناء إخوته ينادونه “عمو” برود من لا يعرفه جيدًا.

عاد...

لكن شيئًا ما لم يعد معه.

الأصدقاء تغيّروا.

الحارة تغيّرت.

حتى صوته بدا غريبًا في أذنه.

جلس في البيت الذي بناه بماله،

وشعر لأول مرة

أنه يعرف الجدران...

ولا يعرف الناس.

لم يمت في الطريق.

ولم يبقَ في الغربة.

عاد فعلاً.

لكن العودة لم تكن كما حلم.

أدرك متأخراً

أن الغربة لا تأخذ من العمر فقط...

بل تأخذ من العلاقات،

ومن اللحظات التي لا يمكن استعادتها.

هكذا يعود بعضهم،

ويكتشف أن الوطن الذي حمله في قلبه

لم يكن ثابتاً كما ظن.

ليس لأن الوطن تغير وحده،

بل لأن الزمن لا ينتظر أحداً.

✧ العريس الذي لم يَعد ✧

غادر شابٌ يمني قريته الصغيرة متجهًا إلى المملكة العربية السعودية.
لم يذهب نزهة،

ولم يكن يبحث عن مغامرة،

بل خرج يطلب الرزق.

قبّل يد أمّه قبل السفر،

احتضن إخوته الصغار،

وكان قلبه ممتلئًا بوعدٍ صامت:

“سأعود... وسأبني لنا حياةً أفضل.”

نجا من وعثاء الطريق،

ووصل إلى عمله بأمان.

اشتغل في البناء تحت الشمس الحارقة،

حمل الحجارة،

ورفع الجدران،

وكان يبني بيوت الناس...

وفي داخله يبني حلمه الخاص.

سنواتٍ مرّت.

ادّخر قرشًا فوق قرش.

أرسل المال،

وبنى بيتًا في قريته في اليمن.
ذهبت أمّه تختار له عروسًا،
ابنة عمّه كما اعتادوا،
وتمت الخطوبة.
لم يعد ذلك الشاب الذي يعمل ليأكل فقط،
بل أصبح العريس الذي ينتظر يوم فرحه.
خطّط أن يعود فورًا ليتزوج.
اشترى الهدايا،
جهّز مستلزمات العرس،
وكان يعدّ الأيام عدًا.
أسبوعان فقط...
ويعود إلى حضن أمّه،
إلى بيته الذي بناه،
إلى عروسه التي تنتظره بثوبٍ أبيض لم يلبس بعد.
لكن القدر كان أسرع.
في شارعٍ عابر،
على رصيفٍ بارد،
سقط...
وتوفّي.
مات قبل أن يرجع.

قبل أن يحقق حلمه.
قبل أن يرى أمّه.
قبل أن يُزفَّ عريسًا.
وظلت الأم تنتظر.
سنوات الغربة مرّت وهي لم تضمه،
لم تقبل جبينه،
لم تودّعه كما يليق بأمّ فقدت ابنها.
آخر حضن...
كان يوم سفره.
آخر كلمة...
“انتبه لنفسك يا ولدي.”
ولم تكن تعلم
أن ذلك الحضن
سيكون الأخير.

✧ رحلة لم تكتمل ✧

كان رجلًا في سن متقدم،
لم يسافر بحثًا عن مال،
ولا هروبًا من ضيق،

بل ذهب إلى المملكة العربية السعودية لأداء العمرة.

كان قلبه معلقًا بعائلته وهو هناك.

كل خطوة في الحرم كانت دعاءً لهم،

وكل سجدة كانت أمنية أن يحفظهم الله ويجمعه بهم سالمًا.

ودّع زوجته قبل السفر بابتسامةٍ تخفي دموعًا صامتة،

واحتضن أطفاله كأنه يطيل العناق أكثر من المعتاد.

قال لهم:

“سأعود قريبًا... ومعى لكم ما تحبّون.”

أنهى عمرته،

واشترى الهدايا بعناية،

استمع لطلبات أطفاله واحدًا واحدًا،

وتخيّل لحظة عودته،

حين تلمع أعينهم فرحًا،

ويغمره البيت بصوته-م.

انطلق عائداً إلى اليمن،

يرافقه شخصان،

ورأسه مرفوع بالأمل.

لكن الطريق في قلب الصحراء

لا يعطي إشارات قبل أن يغدر.

انقلبت السيارة.

وصار الرمل شاهداً صامتاً على المأساة.

مرّ يوم...

ثم يوم آخر.

بلا طعام.

بلا ماء.

بلا من يدلّ عليهم.

العائلة في الجهة الأخرى كانت تنتظر،

تتصل،

تسأل،

وتؤجل قلقها بعباراة:

“ربما الشبكة ضعيفة.”

وحين تم التواصل مع الجهات المختصة،

جاء الخبر ثقيلاً كأنه يسقط من السماء:

وُجدوا...

لكن بلا حياة.

مات قبل أن يطرق باب بيته.

قبل أن تورّع الهدايا.

قبل أن تمتزج دموع الفرح بضحكات الأطفال في حضنه.

انتهت الرحلة،

قبل أن تبدأ الفرحة.

لكن قصته بقيت تهمس لنا:
أن الإنسان قد يسافر بقلب مليء بالحب،
وقد يعود محمولاً بالصمت.
الحياة ليست دائماً كما نرسمها،
ولا الطريق كما نطمئن له،
لكن النية الصادقة تبقى...
شاهدة على قلب أراد الخير،
حتى آخر لحظة.

✧ على ضفاف السيل... حين يتقدم القلب على الحياة ✧

بالقرب من الحدود بين اليمن والمملكة العربية السعودية،
كان النهار يسير بهدوء عادي،
لا شيء يوحي بأن المشهد سيُشَقَّ إلى نصفين.
وفجأة...
صوتٌ هادر مزّق السكون،
كأن الأرض انفتحت،
واندفع سيلٌ عارم بلا إنذار،
يحمل في اندفاعه قوة لا تُجادل.
هرب الجميع.

رجال الأمن،
المواطنون،
كلّ يبحث عن نجاةٍ سريعة،
فالسيل لا ينتظر أحدًا،
ولا يرحم من يتأخر.
وفي لحظة خاطفة،
اختطف الماء رجلًا يمنيًا
من أمام أعين الواقفين.
ارتفعت الصرخات.
امتدّت الأيدي...
ثم تراجعَت.
كان الموت واضحًا،
وأي خطوةٍ نحوه
تعني الانضمام إليه.
وقفوا بين الرغبة في الإنقاذ
واليقين بالعجز.
لكن واحدًا منهم
لم يحتمل.
لم يحتمل أن يرى صديقًا —
أو ربما مجرد ابن وطن —

يُسحب أمام عينيه.
لم يفكر طويلاً.
لم يحسب احتمالات النجاة.
لم يسأل عن المصير.
قفز.
قفز وكأنه يقفز نحو قدره،
كأن الحمية سبقت العقل،
وكان الدم الذي يجري في عروقه
رفض أن يقف متفرجاً.
ربما قال في نفسه:
"أستطيع إنقاذه."
وربما لم يقل شيئاً...
إلا أن يمدّ يده
قبل أن تختفي اليد الأخرى.
لكن السيل كان أقوى من الشجاعة،
وأعنف من الحمية،
وأقسى من النوايا الطيبة.
اختفى الاثنان.
هدأ الصراخ،
وبقي الصمت.

بحثوا طويلاً،
نادوا،
فتشوا ضفاف الوادي،
لكن الماء كان قد كتب كلمته الأخيرة.
لم يُعثر على جثمانيهما.
لم تكن القصة عن موتٍ فقط،
بل عن قلبٍ
اختار أن يتقدّم على الحياة،
أن يغامر بنفسه
كي لا يعيش عمره نادماً على وقوفه صامتاً.
بعض الناس يموتون لأنهم ضحايا،
وبعضهم يموتون
لأنهم لم يعرفوا كيف يكونون متفرجين.

✧ غريبٌ بين الطريق والوطن ✧

لم يكن يريد أن يتركها.
كانت زوجته تخفي دموعها كي لا تضعف عزيمته،
وأُمّه تمسح على رأسه كأنها تحفظ ملامحه في قلبها،
وطفله الصغير لا يفهم لماذا يقبله أبوه كثيراً ذلك اليوم.

قال لهم:

“سأعود... هذه الغربة قصيرة.”

لم يكن السفر حلمًا.

كان هروبًا من ضيق الحياة،

ومحاولة أخيرة ليصنع لطفله مستقبلًا لا يشبه فقره.

اتجه نحو المملكة العربية السعودية،

سالكا طريقًا وعرًا بين جبال ووديان تفصلها عن اليمن،

طريقًا لا يعترف بالضعفاء.

مشى طويلًا.

ركض حين اضطر.

كان يتظاهر بالقوة أمام رفاقه،

لكن جسده بدأ يخونه.

تثاقلت قدماه.

صار النفس حارقًا في صدره.

توقف.

قال لهم بصوتٍ متقطع:

“سأستريح قليلًا... والحق بكم.”

ظنّوا أنه سيلحق.

ظنّ أن الراحة دقائق فقط.

لكن تلك الدقائق كانت الفاصل بين الحياة والموت.

جلس تحت شجرة وحيدة،
في أرض لا تعرف اسمه،
ولا تعرف أنه أب ينتظر أن يُنادى "أبي" مرة أخرى.
حلّ الليل.
كان الليل طويلاً...
موحشاً...
بلا نار،
بلا رفيق،
بلا كلمة تطمئنه.
لم يكن معه أحد،
إلا الله.
وفي الصباح...
لم ينهض.
لم يصل إلى الغربة.
ولم يعد إلى الوطن.
بقي بينهما...
كأن الطريق ابتلعه.
حين عُثر عليه،
كان ساكناً تحت الشجرة نفسها،
كأن التعب غلبه فقط.

لكن الحقيقة كانت أقسى.

حتى جثته...

لم تدفن.

لم يُصلّ عليه كما ينبغي.

لم يُحمل على أكتاف الرجال.

لم تفتح له حفرة تحت تراب وطنه.

ترك هناك.

مغطى على عجل.

تحت شجرة شاهدة،

وفي أرض غريبة،

لا تحمل اسمه،

ولا تعرف أن خلفه أمًا ستظل تنتظر،

وزوجة ستتجمّد دموعها في عينيها،

وطفلاً سيكبر وهو يسأل:

“أين أبي؟”

لم يمت في حضن أمه.

ولم يمت في حضن وطنه.

مات في المسافة...

في الفراغ الذي لا يعترف به أحد.

هناك انتهت حكايته.

بلا قبر يُزار.

بلا شاهدٍ يحمل اسمه.

بلا وداع.

خاتمة الفصل

ليس كلُّ من خرج من الوطن عاد إليه.

وليس كلُّ من عاد... وصل.

بعضهم عاد محمول علي الأكتاف

وبعضهم لم يعد أصلاً،

لم تحمله أكتاف أهله،

ولم يُواره ترابٌ يعرف اسمه.

بعضهم عاد خبراً في اتصال قصير،

وبعضهم عاد اسماً يُتلى في دعاء أمّ عند الفجر.

وبعضهم ما زال حياً...

لكن المسافة بينه وبين بيته أطول من كل الطرق.

في هذا الفصل،

لم تكن القصص عن موتٍ فقط،

ولا عن غربةٍ فقط،

بل عن قلوبٍ خرجت وهي تحمل الوطن داخلها.

شابٌ غادر غاضبًا... فابتلعتَه المسافات.
عريسٌ اقترب من الفرحة... فسبقه القدر.
معتزمٌ أنهى عبادته... ولم يكمل رحلته.
رجالٌ على الطريق... عادوا بلا أبواب يطرقونها. تفتح لهم
ورجلٌ قفز نحو السيل... لأن قلبه رفض أن يقف متفرجًا.
ورجلٌ وحيد بين الجبال والوديان... لم يصل إلى السعودية، ولم يجد طريق
العودة للوطن، مات وحيدًا تحت شجرة، لا والديه، ولا زوجته، ولا طفله
بجانبه... ولم يستطع أحد أن يدفنه إلا الله.
كلهم كانوا "عائدين".
لكن العودة ليست وعدًا مضمونًا.
الطريق ليس دائمًا جسرًا... أحيانًا يكون فاصلًا بين الحياة وما بعدها.
الوطن ليس جدرانًا،
ولا حدودًا على خريطة،
الوطن أمٌ تنتظر،
وزوجةٌ تعدّ الأيام،
وطفلٌ يسأل كل مساء:
"متى سيعود أبي؟"
وكم من سؤال بقي بلا إجابة.
في بلادٍ يخرج أهلها بحثًا عن رزق أو كرامةٍ أو أمل،
تصير العودة حلمًا مؤجلًا،
وتصير الطرق شاهدًا على أحلام لم تكتمل.

لكن رغم كل شيء...
يبقى الوطن فيهم.
في آخر كلمة،
في آخر نظرة،
في آخر وصية،
في آخر قفزة نحو إنقاذ إنسان،
وفي آخر نفس عاشه أحدهم وحيداً بين الجبال والوديان.
ربما لم يصلوا بأجسادهم،
لكنهم عادوا حكايات.
عادوا وجعاً في القلوب،
وعبرة في العيون،
ودرساً ثقيلاً عن الحياة.
هذا الفصل ليس عن الذين ماتوا فقط،
بل عن الذين ينتظرون،
وعن الذين عاشوا وحيدين،
وعن الأبواب التي ما زالت تفتح على أمل،
وعن الأمهات اللواتي يتعلمن الصبر أكثر مما تعلمن الفرح،
وعن وطن
يُحبّه أبناؤه حتى وهم يغادرونه.
ليس كلّ العائدين يصلون...

لكن كلّ الراحلين
يحملون الوطن معهم،
حتى آخر الطريق،
حتى آخر نفس،
حتى آخر قلب أحبّ...

حين تقف المرأة يقف الوطن:

المرأة في اليمن..

ليست مجرد شخص في البيت..

هي كل شيء

_رحمة محمد

✧ المرأة اليمنية: قلب الوطن النابض ✧

المرأة في اليمن ليست كلمة عابرة،
وليست وصفاً يُقال ثم يُنسى.
المرأة في اليمن... وطن.
هي الأم،
هي المدرسة الأولى،
هي المعلمة التي تربي قبل أن تعلم،
وهي الأب حين يغيب الأب،
هي التي تمشي بثوبها المحتشم،
برأس مرفوع،
بعفة لا تهتز،
حتى لو كانت الظروف أقسى من قدرتها.
في زمن تتغير فيه القيم،
تبقى المرأة اليمنية متمسكة بكرامتها،
تعرف أن قوتها ليست في الصخب،
بل في ثباتها.
وحين تثقل الحياة كاهل البيت.
تصبر... ليس لأن الصبر سهل،
بل لأن الانهيار ممنوع.

تهتم بأولادها،
تبدأ بالتربية قبل التعليم،
تغرس فيهم الدين، والخلق، والكرامة،
ثم تسعى لتأمين مصروفهم،
تدبر شؤون البيت بحكمة،
وتقسّم القليل حتى يكفي الجميع...
وتبتسم رغم الجوع الذي يختبئ خلف ابتسامتها.
وإن لم يكف ما يُنفقه الأب،
لا تقف عاجزة.
تعمل داخل منزلها:
خياطة...
تطريز...
صناعة خبز...
أي شيء يحفظ للبيت كرامته.
وإن كانت غير متزوجة،
فالمسؤولية لا تبتعد عنها.
تساعد أباه،
تحمل معه همّ الأسرة،
وإن توفي...
تقف إلى جانب إخوتها،

تشتري دواء أمها،
تدعم أباها ليكمل دراسته،
تمد يد العون لأختها المتزوجة،
تحل مشاكلها،
تواسيها،
وتحفظ بيتها من الانكسار.
هي أخت، وأم، وكتف، وسند.
تهتم بإخوتها الصغار:
بما يلبسون،
ماذا يأكلون،
كيف يدرسون،
وما الطريق الذي يجب أن يسلكوه في الحياة.
في اليمن...
النساء لا يبنين البيوت فقط،
بل يبنين الوطن.
يبنين المجتمع،
والأخلاق،
والدين،
والشجاعة.
يتحملن المصاعب،

وكلما رأيت امرأة قوية...
فاعلم أن ما مرّت به لم يكن قليلاً.
المصائب لا تكسر الجميع،
بعضها يصقل،
يزيد النضج،
ويعمّق الفهم.
في اليمن،
الأخ الأكبر مسؤول عن أخيه ولو كان أكبر منه بسنة،
والكبير مسؤول عن الصغير،
والجميع مسؤول عن الجميع.
التضحية ليست شعاراً،
بل أسلوب حياة.
التفاني والعمل مترابطان،
من المرأة والرجل،
لا فرق في الكرامة،
ولا فرق في السعي.
الجميع يحاول،
قدر المستطاع،
أن يؤمّن حياة هادئة، آمنة، مستقرة.
وإذا كان الوطن يسكن قلوبنا...

فالمرأة اليمينية هي القلب الذي يحفظه نابضاً...
بصبرها، بتضحياتها الصامتة، وبكل دموعها التي لا يعرف

✧ الجبال والأرض تصنع الإنسان ✧

ليس كل جبل شاهق مجرد صخرة تعانق السماء...
بل هو معلم صامت،
ومعركة صبر،
ومرآة تعكس حقيقة النفس.
كل ارتفاع يعلم الإنسان الصعود ولو أثقلته الرياح،
ويزرع فيه العزة،
ويصقل كرامته كما تصقل الحجارة على سفوحه.
كل صخرة يعتليها،
وكل ضباب يمر من حوله،
يهمس له أن القوة لا تولد صدفة،
بل تنتزع انتزاعاً،
وأن الثبات لا يهدى،
بل يُبنى صموداً بعد صمود.

أما الأرض المنبسطة،
الساحلية والسهول الهادئة،
فتُعلم البساطة،
وتزرع الطيبة،
وثرَّبِي في النفس مرونة الانحناء دون انكسار.
لكنها لا تمنح ذات الإحساس بالهيبة،
ولا تختبر الروح بذلك القدر من القسوة التي تُنضجها.
فالقوة ليست إرادة الإنسان وحده...
بل هي جزءٌ من الأرض التي نشأ عليها.
الجبال تمنح الشموخ والصلابة،
والسهول تمنح السكينة واللين،
والتوازن بين الاثنين هو الذي يصنع إنسانًا كاملًا.
لذلك،
من ينشأ بين الجبال،
ينشأ شامخًا كقممها،
قويًا كالهواء النقي الذي يملأ وديانها،
ثابتًا كصخورها،
صبورًا كطبيعتها التي لا تنهار أمام العواصف.
وكلما التفت إلى أرضه،
أدرك أنه ليس عابرًا فيها...

بل هو امتدادٌ لها.
جزءٌ من قوتها،
جزءٌ من شموخها،
وابنٌ جبال لا تعرف الانحناء.

قصص النساء اليمنيات :

✧ امرأة تصنع المستقبل ✧

بينما كان زوجها يعمل في المملكة العربية السعودية،
كانت الأسرة الكبيرة تنتظر قوتها وصبرها يوميًا.
البيت لم يكن يسع إلا لأعباء الحياة القاسية،
وقلوب الأطفال الصغيرة تشعر بالفقر قبل أن تفهم العالم.
حين أنهى الابن دراسته الثانوية
حلمت الأم أن يكمل مسيرته الجامعية،
لكنها عرفت أن الطريق لن يكون سهلاً.
الدخل محدود، والبيت يئن تحت ثقل الحياة اليومية،

وكل يوم يحمل امتحاناً جديداً للصبر والتحمل.
قسمت وقتها بين إدارة المنزل، رعاية الأبناء الصغار،
والاعتناء بالمواشي، التي كانت تباع بعضها لتأمين
جزء من تكاليف دراسة ابنها.
كل ريال يأتي بعد جهد مضاعف،
وكل لقمة طعام تقسم بعناية لتكفي الجميع.
وفي الليالي الطويلة، حين ينام الجميع،
كانت تبكي بصمت خلف جدران غرفتها،
تلمس دموعها الصامتة على وسادتها،
وتعيد ترتيب نفسها لتستيقظ صباحاً كأن شيئاً لم يحدث.
أما الابن، فكان يعرف ما يضحى به الجميع من أجله.
يصرف قليلاً جداً، أغلب الأيام يصوم كي يكفي مصروفه،
وعيناه ترى تعب والدته في كل خطوة، في كل وجبة معدة،
وفي كل صباح يبدأ فيه يوماً جديداً من العمل والكدح.
كل مرة كان يرفع رأسه، كان يرى عزمها الصامت،
قلبها الذي لا يعرف الاستسلام، وعزيمتها التي تشبه الجبال.
كانت الليالي طويلة، والأيام أطول، لكنها لم تنهض إلا لتصنع الأمل.
لم يكن صبرها مجرد صبر... كان حرباً صامتاً ضد الفقر،
ضد القسوة، ضد الاستسلام.

كل لحظة تعبها، كل دمة لم تذرفها أمام أحد،
كل وجبة حرمت نفسها منها، كانت بناءً لمستقبل ابنها،
ولبقعة أمل صغيرة في بيت يعجّ بالمسؤوليات.
هكذا، في اليمن، لا يأتي شيء بسهولة.
كل نجاح، كل فرصة تعليم، كل لقمة عيش،
يتم انتزاعها بصبر المرأة، بعزمها، بتضحياتها التي لا يراها أحد،
والتي تبقى محفورة في الأرض والبيت،
وفي قلوب من عايشوا معها الصعاب.
الأم هنا ليست مجرد شخص يربّي أبناءه...
هي الوطن كله في صورة امرأة واحدة.
صابرة، ذكية، مخلصّة، تحمل على كتفها بيتًا كاملاً،
وقلوب أطفالها، وأمل مستقبلهم.
تصنع الحياة من بين ضيق الأيام،
وتزرع الأمل من بين دموعها الصامتة...
كل خطوة لها كانت معركة،
وكل ضحكة ابنها نجاحًا صامتًا،
وكل ريال أنفقته شهادة على أنها وحدها تصنع المستحيل.

❖ صمتها يبني الوطن ❖

كانت فتاة يمنية عادية في الجامعة، مثل آلاف الفتيات اللواتي يحملن أحلامًا بسيطة عن المستقبل.

كانت تحب الدراسة، وتجتهد أكثر من غيرها، تؤمن أن التعب اليوم سيصنع لها حياة أفضل غدًا.

مع السنوات، طوّرت نفسها كثيرًا، حتى بدأت العمل في المستشفى، وتقدمت خطوة خطوة، حتى وصلت إلى منصب مسؤولية. كان الجميع يرى فتاة ناجحة وطموحة. لكن قليلين فقط يعرفون أن خلف هذا النجاح حياة مليئة بالتضحيات، وأن صمتها يخبئ قصص الألم التي لا تروى.

ثم جاء اليوم الذي تغيّر كل شيء... مرضت أمها.

جمّد جسدها الصغير، والدموع لم تعد تتحرك... شعرت بأن الأرض انفتحت تحت قدميها. لكن لم تسمح لليأس أن يلتهم قلبها. تركت الكثير من تفاصيل حياتها جانبًا، وتحملت مسؤولية علاج أمها بالكامل.

كانت تنتقل بها من مستشفى إلى آخر، من طبيب إلى طبيب، ومن عملية إلى أخرى. كانت تحمل ملفات العلاج بيد، وخوفًا لا ينتهي بقلبها. تسهر قرب سرير أمها في الليالي الطويلة، تراقب أنفاسها، وتبتسم لها كلما فتحت عينيها، لكنها تبكي بصمت خلف الأبواب المغلقة.

في تلك اللحظات لم تكن مجرد ابنة... بل أصبحت ممرضتها وسندها الوحيد في مواجهة المرض.

مرت الأيام والسنوات، لكنها لم تفكر في الزواج، ولم تفكر في حياتها الخاصة. كانت ترى بقاء أمها بخير أهم من أي حلم آخر.

حتى جاء ذلك الصباح الصامت... كانت جالسة قرب سرير أمها، تمسك يدها كما اعتادت دائمًا. الأجهزة تصدر أصواتًا خافتة، والغرفة يملؤها صمت ثقيل.

فتحت أمها عينيها بصعوبة، ونظرت إليها طويلاً، ثم قالت بصوت ضعيف:

"لا تتعبي نفسك من أجلي... اعتني بنفسك قليلاً."

ابتسمت لها وهي تخفي دموعها، وقالت بهدوء:

"ستتحسنين... أنا هنا."

لكن بعد لحظات... ساد صمت مختلف.

نظرت إلى يد أمها التي كانت تمسكها، وشعرت بأن دفئها بدأ يختفي ببطء.

جمّد قلبها، والدموع تجمدت في عينيها... أدركت الحقيقة التي كانت تخشاها طوال السنوات. رحلت أمها. تركت فراغًا لا يمكن أن يملأه شيء.

وقفت للحظات، تتلمس طريقها في صمت، فقدت فجأة الدور الذي عاشت لأجله سنوات.

لكن الحياة لم تمنحها وقتًا طويلاً للحزن.

والدها أصبح مقعدًا لا يستطيع الحركة، فكانت تتحمل نفقات علاجه، وترسل المال باستمرار ليتم الاعتناء به. ومع ضغط العمل.

كانت تدفع تكاليفه، وتحرص على راحتته، رغم كل ما تحمله من أعباء.

كان الجميع يرى امرأة قوية وناجحة... لكن قليلين فقط عرفوا كم من التعب والحزن تختبئ خلف تلك القوة.

هذه المرأة لم تعش لنفسها فقط...

بل حملت فوق كتفها أمًا مريضة، وأبًا عاجزًا، وبيتًا كاملاً ينتظر دعمها.

وهكذا هي كثير من النساء في اليمن...

قد لا يسمع أحد قصصهن، لكنهن يحملن العالم بصبر صامت، ويصنعن الأمل من بين التعب.

امرأة واحدة...

لكنها كانت وطينًا كاملاً لمن حولها.

✧ حين تصنع المرأة المستحيل ✧

كانت شابة يمنية، قلبها مفعم بالأمل، وعينها شاخصة نحو مستقبل لم يكن سهلاً أبداً. والدها عاجز عن العمل، والأسرة غارقة في صعوبات الحياة اليومية، كل يوم يمر كأنه موجة عاتية تهدد بغرقها.

بدأت رحلتها الجامعية بدعم من منظمة، شعرت بالأمان لأول مرة... لكنها لم تعرف أن القدر سيختبر صبرها بهذه الطريقة القاسية. بعد مستوى ثاني، انقطع الدعم فجأة. جمّد قلبها، والدموع لم تعد تتحرك... شعرت وكأن الأرض انفتحت تحت قدميها، وحلمها يضيع بين يديها.

لكن لم تسمح لليأس أن يلتهم قلبها. قالت لنفسها: "إذا لم أستطع الاعتماد على أحد، سأكون وحدي... سأصنع مستقبلي بيدي."

ذهبت إلى المستشفيات تبحث عن فرصة عمل، وواجهت الرفض مراراً. كل باب مغلق كان كصمتٍ يصرخ في وجهها، كل رفض كان كجرحٍ غائر في روحها. لكنها لم تيأس. قلبها ظل صامداً، وروحها حاملة رسالة أكبر من نفسها: حماية أسرته وبناء مستقبلها مهما كلفها الثمن.

نجحت أخيراً في الاختبار، لكن لم ينتهِ التحدي. العمل والدراسة أصبحا حياة مزدوجة لا ترحم. ساعات طويلة في الدراسة، ثم تتوجه مباشرة إلى البيت، لتطبخ، ترتب، تدير المصروف،

إخوتها وأخوانها المتزوجون أصبحوا يعتمدون على قوتها، وكل شهر كانت تتحمل مصروفهم من دون أي دعم من عائلتها، تحمل همّ البيت وهمومه الصامتة، كل خطوة وكل قرار كان امتحاناً جديداً لصبرها.

كل يوم كان اختباراً، وكل ساعة على حافة الانهيار. كانت تتعب، وتبكي

بصمت في الليل، تخاف ألا تكفي قوتها، تخاف ألا ترى نجاحها يثمر. لكن كل ضحكة طفل، كل كلمة شكر من أخ، كل خطوة نحو الهدف، كانت وقودًا لها، دافعًا لتستمر رغم الألم، رغم التعب، رغم الوحدة.

اليوم، لم تعد مجرد امرأة ناجحة، بل رمز للصبر الذي يثمر، للتضحية التي تبني الحياة، للعزيمة التي تتحدى المستحيل. هي صورة المرأة اليمنية الحقيقية: قلب الوطن، قوة البيت، نور الأمل، وحصن المستقبل.

ومع كل هذا، يبقى صمت الليل شاهداً على دموعها التي لم يعرفها أحد، وعلى الليالي التي قضتها وحيدة تواجه قسوة العالم، حتى يبتسم غدها... وتذكر أن الحياة الحقيقية تصنع بالحب، بالصبر، وبالقدرة على الوقوف حين ينهار كل شيء من حولها.

✧ حارسة الأنفاس ✧

ممرضة في الليل

في الساعة التي ينام فيها العالم،

حين تخفت الأصوات، وتطفأ الأنوار، وتغرق البيوت في دفء الأسرة...

تبدأ هي يومها.

فتاة تلبس الأبيض، لا كفستان فرح،

بل كعهدٍ بينها وبين الألم.

تمشي في ممر طويل، بارد قليلاً، هادئ حدّ السكون،

حتى صوت خطواتها يبدو كأنه لا يريد إزعاج المرضى.
الجميع نائم...

إلا هي.

لا تحرس مبنى، ولا تحرس بابًا،
هي تحرس أنفاسًا تتردد بين الصعود والهبوط،
تحرس قلوبًا صغيرة تتعب بسرعة،
تحرس حياةً قد لا يلاحظ العالم كم هي هشة.
تقترب من سرير صغير.

تبتسم قبل أن تنظر إلى الأجهزة،
كان ابتسامتها جزء من الخطة العلاجية.
تتفقد العلامات الحيوية،
تقرأ الأرقام بعين خبيرة،
لكن قلبها لا يقرأ أرقامًا...
يقرأ وجعًا.

تنظر إلى نسبة الأكسجين،
تعديل القناع بعدما أبعدته يدٌ صغيرة مشاكسة.
تضحك بخفة:

"مرة ثانية؟"

هو لا يفهم المرض،
لا يفهم معنى أنبوب التغذية،

ولا لماذا يجب أن يبقى هذا الشيء ملتصقًا بوجهه.

يسحبه أحيانًا،

يخرب اللصقة مرات،

كأنه يقول: أريد أن أكون طفلًا فقط... بلا أنايب.

فتعود هي،

تبدل اللصقة مرة بعد مرة،

بصبر يشبه صبر الأمهات.

تغيّر وضعيته حتى لا يتعب جسده الصغير،

تعطيه الحليب،

تسجل وزنه،

تكتب الملاحظات بدقة،

لكن بين كل سطر وسطر...

دعوة صامتة.

حين يبكي،

لا تأتيه كموظفة تؤدي عملها،

بل كقلب يعرف أن البكاء لغة ضعف صادق.

تحمله أحيانًا،

تهدهده قليلًا،

تلاعبه، تهمس له بكلمات لا تكتب في ملف طبي.

وفي لحظة هدوء قصيرة،

تنظر إليه وهو نائم،
فتشعر بشيء يتسلل إلى صدرها...

تعب؟

ربما.

حنان؟

أكيد.

خوف خفي من أن تتعلق أكثر مما ينبغي؟
ربما أيضًا.

الممر ما زال هادئًا،

الساعة تمضي ببطء،

والعالم لا يعلم أن في هذا الركن الصغير

فتاة تسهر بدل الجميع.

قد لا يذكرها أحد في الصباح،

قد لا يعرف اسمها أهل الطفل،

قد تمر المناوبة بلا شكر أو تصفيق...

لكنها تعرف، في داخلها،

أنها الليلة

لم تكن مجرد ممرضة.

كانت يداً تمسك بالحياة

حين حاول التعب أن يسحبها بعيداً.

وحين ينتهي الليل،
وتخلع الأبيض،
يبقى أثره في قلبها...
ويبقى في روحها شيءٌ لا يُغسل بالماء،
شيء يشبه الرحمة.

✧ بين قبر ومهد ✧

كانت معلمةً يمنية، هادئة الطبع، تحمل في قلبها أحلاماً بسيطة كأحلام كثير
من النساء: بيتٌ مستقر، زوجٌ يشاركها تعب الحياة، وأبناءً يكبرون في ظل
أبٍ وأم.

كانت أمّاً لثلاث بنات، وتنتظر مولودها الرابع. في شهرها التاسع، كانت تعدّ
الأيام انتظاراً لولادة طفلها، وتحلم كما تحلم كل أمّ بلحظة يجتمع فيها الفرح
في عيون أسرتها.

لكن الحياة لا تسير دائماً كما نرسمها.

في ذلك اليوم، وصل الخبر الذي بدّل كل شيء.

توفي زوجها.

سقط الخبر على قلبها كالصاعقة. لم يكن غياباً مؤقتاً، ولا سفرًا طويلاً، بل
رحيلًا لا عودة بعده.

حاولت أن تتمالك نفسها، لكن الحزن كان أكبر من قدرتها على الاحتمال.

وفي الوقت الذي كان الناس يتهياون لتشيع زوجها ودفنه، كانت هي

تصارع آلام المخاض.

مشهدٌ لا يحتمله قلب.

زوجٌ يُحمل إلى قبره، وطفلٌ يستعد للخروج إلى الحياة.

بين الموت والميلاد، وقفت تلك المرأة وحدها، تحمل وجع الفقد، وألم الولادة، وخوف المستقبل.

وفي ذلك اليوم، وُلد طفلها.

لم يرَ أباه. ولم يسمع صوته. ولم يحظَ بحضنه يوماً.

لكن أمه أرادت أن يبقى شيءٌ من والده حيًّا بينهم، فأطلقت عليه اسم أبيه.

كانها كانت تقول للحياة: "رحل الجسد... لكن الأثر باق."

مرت الأيام، وأصبحت هي الأب والأم معًا.

كانت تستيقظ باكراً لتذهب إلى المدرسة، تعلم أبناء الناس، ثم تعود لتكمل رسالتها مع أبنائها.

وفي المساء، كانت تشرف على حلقات تحفيظ القرآن، تزرع في قلوب الأطفال كلام الله، بينما تخفي في قلبها تعباً لا يراه أحد.

لم تستسلم للحزن. لم تسمح لليتم أن يكسر أبنائها. ولم تجعل الفقد يتحول إلى عجز.

كانت تعمل، وتربي، وتعلم، وتصبر.

تمر عليها الليالي الطويلة، وتواجه وحدها ما كان يواجهه اثنان.

وحين كانت تتعب، لم يكن أمامها خيار سوى أن تنهض من جديد.

كبرت بناتها على يديها، وتربى ابنها الذي حمل اسم والده، في ظل أمٍّ كانت وطنًا كاملاً لهم.

كبروا، وأكملوا طريقهم، وتزوجوا، واستقام حالهم.

أما هي، فبقيت شاهدة على سنواتٍ طويلة من الصبر والتضحية.
لم تكن بطلة في قصة ثروى، ولا شخصية في رواية.
كانت امرأة يمنية عادية...
لكنها أثبتت أن بعض النساء، حين تنهار الدنيا من حولهن، لا يسقطن...
بل يحملن الدنيا فوق أكتافهن، ويمضين.
وهكذا هي المرأة اليمنية.
قد تخفي دموعها، وقد تكتم وجعها، لكنها حين تختبر، تظهر من القوة ما
يجعل بيتًا كاملاً يقف على قدميه.
فحين تقف المرأة... يقف الوطن.

✧ حين تكون المرأة الأب والأم والوطن ✧

هناك من يحرس الوطن بالأسلحة، وهناك من يحرسه بصمت.
ليس كل قتال صاخبًا، وليس كل نصر مدويًا.
أحيانًا، يكون الوطن في حضن امرأة...
في صبرها الطويل، في دموعها الخفية، في قوتها التي لا يراها أحد.
كان زوجها يغادر للعمل خارج البلاد، يودعها وهي حامل، وتقبل بطنها كما لو
كانت تحمل معه جزءًا من قلبه.
ثم يغيب... سنوات طويلة.

البيت صامت، والأيام ثقيلة، والليل يمر مثل حجر يضغط على قلبها.
كل صباح، كانت ترفع رأسها وتهمس لنفسها: "علينا أن نصمد، لأجلهم".
تبقى هي وحدها...
زوجة... أم... أب في الوقت نفسه.
كبر طفلها في حضنها، لا يعرف حضن أبيه إلا في الصور.
هو الذي يبكي في الليل، فتسارعه إلى سريرته، تمسح دموعه، وتروي له
قصصًا عن الأبطال والجبال والأنهار... عن وطن لا ينهار.
تعلمه الكلام، وتعلمه المشي، وتعلمه أن القوة تكمن في الصبر، وأن الحب لا
يحتاج إلى كلمة "أب" ليكون حاضرًا.
تمر الأيام... تمر السنوات...
تتكرر الغيابات والرحلات الطويلة.
كل عودة للأب تكون قصيرة، كل لحظة سعيدة معها تمحوها سنوات من
الغياب.
يحاول الأب أن يشارك الحياة الأسرية، لكن الطفل اعتاد أن تكون أمه كل
شيء: حضنًا، أمانًا، لعبة، وحكاية قبل النوم.
ويشعر الأب، في صمت قلبه، أن سنوات طفولة أولاده كانت بعيدة عنه...
وأن حضوره متأخر دائمًا.
ثم يعود الصمت مجددًا...
الحقائب تحزم، الغربة تعود، والبيت يسكت من جديد.
تجلس هي في زاوية البيت، تحدّق في الدفء الذي صنعت، وفي الأطفال
الذين كبروا على صبرها.
تسمع خفقات قلبها وحدها، وتبكي بصمت... دموع لم يعرفها أحد، دموع

تحمل سنوات كاملة من الكفاح والصبر.

وفي كل صباح، تنهض لتبدأ من جديد، تبني اليوم بحبها، وتزرع الأمل في وجوه صغارها رغم كل التعب والوحدة.

كانت تعدّ الطعام، تنظف البيت، تساعد الأطفال في دراستهم، ترويههم القصص، تعلمهم الأخلاق والصبر، وتحتضنهم عند الخوف أو المرض...

كانت الأم... الأب... المدرسة... الحاضنة... الوطن كله في جسد واحد.

هكذا تعيش كثير من النساء في اليمن...

يخفى عن الجميع تعبهن وصمتهن، لكنهن يحملن الحياة على أكتافهن، يحفظن الدفء، ويصنعن المستقبل من بين الضحك والدموع.

حين يسافر الرجل لبحث عن الرزق...

تبقى المرأة هي القلب، السند، القوة، والأمل.

لهذا...

حين تقف المرأة، يقف الوطن.

✧ أم تجمع الأحلام ✧

لم تكن تنتظر المال...

كانت تنتظر مستقبل ابنها.

كلما وصلتها حوالة صغيرة منه، أمسكتها بيديها وكأنها تمسك قطعة من
تعبه، وساعات عمله الطويلة، وأيام غربته البعيدة.

كانت تعرف أن ما يرسله لم يأت بسهولة.

جاء من شمس حارقة،

ومن تعب لا يراه أحد،

ومن شوق يخفيه خلف صوته المطمئن حين يقول:

"أنا بخير يا أمي."

فتردّ عليه:

"الله يحفظك يا ولدي."

ثم تغلق الهاتف،

وتجلس وحدها تبكي قليلاً.

لا لأنها تريد المال،

بل لأنها تعرف ثمنه.

تعرف كم مرة نام متعباً،

وكم مرة تحمّل الجوع أو المرض أو الوحدة بعيداً عن أهله.

ولهذا كانت تتعامل مع كل ريال وكأنه أمانة.

تجمعه قرشاً فوق قرش،

وتضعه في مكان آمن،

وتقول في نفسها:

"هذا لبيت ابني..."

وهذا لعرسه...

وهذا لأيامه القادمة."

كانت تحرم نفسها أشياء كثيرة.

تمر الأيام فلا تشتري ثوباً جديداً.

وتؤجل حاجاتها مرة بعد أخرى.

وأحيانًا يطلب أحد أبنائها شيئًا بسيطًا،
فتقول له بحنان:

"لاحقًا يا ولدي."

لم تكن بخيلة.

لكنها كانت تبني حلمًا أكبر من رغباتها الصغيرة.

كانت تريد أن ترى ابنها مستقرًا قبل أن تغادر الدنيا.

كانت تخاف من العمر وهو يمضي سريعًا.

وتخاف أكثر أن يسبقها الموت قبل أن ترى أيامه الجميلة.

كل ليلة،

وبعد أن ينام الجميع،

كانت ترفع يديها إلى السماء وتدعو:

"يا رب...

احفظه في غربته.

وسع رزقه.

واجمعني به على خير.

ولا تأخذ أمانتك مني حتى أراه سعيداً."

ومرت السنوات...

وكبر حلمها معها.

لم تعد تفكر في البيت فقط.

صارت تفكر في الزوجة التي ستشاركه حياته.

وفي اليوم الذي ستذهب فيه مع نساء العائلة لتخطب له.

كانت تتخيل نفسها وهي تدخل بيت العروس،

وتتحدث عنها بفخر:

"ابني شاب طيب..."

تعب كثيرًا حتى يبني مستقبله."

وتبتسم وهي تتخيل يوم الموافقة.

ثم يوم عقد القران.

ثم ليلة العرس.

كانت تعيش هذه التفاصيل في خيالها قبل أن تعيشها في الواقع.

وحين عاد ابنها أخيرًا،

كان أول ما فعلته أن نظرت إليه طويلًا.

رأت في وجهه سنوات الغربة كلها.

ورأى في عينيها سنوات الانتظار.

ثم بدأت رحلة تجهيز زواجه.

كانت تشتري الأشياء بفرح لا يوصف.

وتنتقل بين البيوت والأقارب وهي تتحدث عن موعد العرس.

وكان قلبها عاد شابًا من جديد.

وفي ليلة الزفاف...

جلست تنظر إليه من بعيد.

كان يرتدي ثياب الفرح،

ويبتسم للناس.

أما هي...

فكانت تبكي بصمت.

ليس حزنًا.

بل لأن حلمًا حملته سنوات طويلة أصبح حقيقة أمام عينيها.

في تلك اللحظة،

شعرت أن كل أيام الصبر لم تذهب سدى.

وأن كل قرش جمعته،

وكل أمنية أخفتها في قلبها،

كانت تسير نحو هذه الليلة.

لكن أحلام الأمهات لا تتوقف.

فبعد الزواج،

بدأ قلبها يحلم بشيء آخر.

كانت تدعو الله أن يطيل عمرها قليلًا.

ليس من أجل نفسها...

بل من أجل أن ترى أبناء ابنها.

أن تسمع طفلًا صغيرًا يناديها:

"جدتي."

كانت تتخيل تلك الكلمة فتبتسم وحدها.

وتتخيل يدين صغيرتين تلتفان حول عنقها.

ووجهًا يشبه ابنها حين كان طفلًا.

ثم جاء اليوم الذي حملت فيه حفيدها الأول بين ذراعيها.

ضمّته إلى صدرها طويلاً.

وقبّلت جبينه الصغير.

وأغمضت عينيها للحظة.

كأنها تستعيد عمرًا كاملاً من الذكريات.

تذكرت ابنها وهو رضيع.

وتذكرت أول خطوة مشاها.

وأول يوم ودّعها فيه إلى الغربة.

وأيام الانتظار الطويلة.

وأيام الدعاء.

وأيام الخوف.

كل ذلك مرّ أمامها في لحظة واحدة.

ثم نظرت إلى حفيدها وابتسمت.

كانت تعلم أن الحياة ليست سهلة.

لكنها شعرت أن الله أكرم قلبها.

فقد رأت ابنها يبني بيته.

وشهدت فرحته.

وحملت أبنائه بين يديها.

وحققت الأمنيات التي كانت تخاف أن ترحل قبل أن تراها.

وهكذا هي بعض الأمهات...

يعشن أعمارهن وهن يجمعن الأحلام لأبنائهن.

يصبرن.

ويتعبن.

وينتظرن.

لا طلباً لشيء لأنفسهن...

بل لأن سعادة الأبناء كانت دائماً أعظم أحلامهن.

✧ غرزة الأمل...وبناء ✧

رحل الزوج والشريك وهي لا تزال في عتبات حلمها الأول، ترك خلفه غياباً موحشاً و"أمانة" تنبض في أحشائها. في تلك اللحظة، لم تستسلم لعواصف اليتيم التي هبت على بيتها، بل قررت أن تكون هي الجدار الذي يصد الريح.

معركة الإبرة والخيط

بينما كان الآخرون ينامون، كانت هي تسرق الضوء من عينيها لتضعه في "غرزة" تطريز أو "قصة" ثوب. كل خيط تمرره في القماش لم يكن مجرد خياطة، بل كان رصيفاً تبنيه لابنتها لتعبر عليه نحو المستقبل. يداها التي خشنت من العمل، كانت تزداد حناناً وهي تمسح على رأس صغيرتها، مخفية وراء ابتسامتها تعب السنين وجوع الحرمان.

اليتيم الذي لم يجد طريقاً

لم تشعر البنت يوماً ببرد اليتيم؛ لأن حضن الأم كان دافئاً كشمس صنعاء، وصوتها كان واثقاً لا يعرف الانكسار. كبرت الصغيرة وهي ترى في أمها "الأب" الذي يحمي، و"الأم" التي تربي، و"المعلم" الذي يلهم.

لقد ضحت بعمرها من أجل إبننتها

الثمرة: تاج الجامعة

وجاء اليوم المشهود.. حين وقفت الابنة في أروقة تلك الجامعة العريقة، ترتدي ثوب التخرج:

"هنا انتهى اليتيم.. وبدأ مجد الصبر."

في تلك اللحظة، لم تكن الشهادة مجرد ورقة، بل كانت "رد اعتبار" لكل سهرة قضتها الأم خلف ماكينتها، ولكل وخزة إبرة أدمت إصبعها.

لقد أثبتت أن المرأة اليمنية لا تهدمها الظروف، بل هي التي تعيد هندسة

الحياة من جديد. هي التي تخطط من اليتيم ثوباً للفخر، ومن الدموع جسراً للنجاح.

✧ بصيرة القلب ✧

كان الصمت في بيتها أثقل من الجبال. منذ ذلك اليوم الذي ارتدى إبنها بزته العسكرية، سكن الرعب زوايا الغرف. لم يكن مجرد ابن يغادر، بل كان قطعة من روحها تسير على قدمين نحو أفق يلتهمه الغبار والرصاص. كانت تودعه بعينين تحاولان حبس الدمع، ليس خوفاً من إظهار الضعف، بل لأنها كانت تخشى أن يغرق في حزنها فيتعثّر خطوه وهو يؤدي واجبه.

كل ليلة، كانت تمارس صلاتها الخاصة. تمسح صورته بطرف شالها، وتتساءل في سرها: "هل نام الليلة؟ هل وجد كسرة خبز تقيه الجوع؟" كانت كل دقة في قلبها تتردد كجرس إنذار، ومع كل خبر عاجل في التلفاز، كانت تخبئ يديها المرتجفتين خلف ظهرها لتبدو صلبة أمام إخوته الصغار.

لقد كانت هي الجبهة الداخلية التي لا تنكسر؛ فإن سقطت الأم، سقط البيت، وإن سقط البيت، وهن الوطن.

وعاد ولكن لم يعد بخطواته الواثقة ولا بضحكته التي تملأ الدار.

عاد محمولا في صندوق ضيق، مجرد أشلاء تروي حكاية معركة شرسة.

مسحت دموعها بوقار، وسندت ظهرها بصلاية تذهل الناظرين. رفعت رأسها نحو السماء، وقالت بصوت يرتعش باليقين: "الحمد لله.. أنت أعطيت، وأنت أخذت، وأنا رضيت". لم تكتفِ بكلمات الصبر، بل امتدت يدها المرتجفة — التي طالما مسحت على رأسه — لتتناول بندقيته المعلقة على كتف أحد رفاقه.

بأصابع تعجنها رائحة الطين والدعاء، رفعت السلاح نحو السماء. لم تكن يدها تهتز، بل كانت ترسم طريقاً من الفخر. انطلقت الزغرودة من أعماق قلبها الجريح لتشق سكون الحزن، وتلتها طلقات رصاصات متتالية، دوى صدى صوتها في الجبال المحيطة.

كان كل رصاصة تطلقها تقول: "رحل الابن، وبقيت البندقية.. سقط البطل، ووقف الوطن". في تلك اللحظة، علم الجميع أن الأرض التي تودع شهداءها بزغاريد الرصاص، هي أرض لا تنكسر، وأن المرأة التي تحمل السلاح فوق جرحها، هي ذاتها التي تمنح الوطن عمره الطويل.»

✧ خاتمة الفصل ✧

المرأة اليمنية... ليست مجرد شخص في البيت،
ليست مجرد أم، أو أخت، أو زوجة...
هي كل شيء في آن واحد.
لقد رأينا صبرها، وجهدها، وتضحياتها...
من تحمل مسؤولية أسرتها في غياب الأب،
إلى من صمدت أمام فقدان الدعم، وعملت بلا كلل،
ومن رعت المرضى وسهرت الليالي،
إلى من صنعت من البيت وطناً صغيراً ينبض بالأمل.
كل قصة من هذه القصص...
هي درس في الصبر، في العزيمة، في القوة الصامتة،
في القدرة على تحويل الألم إلى قوة،

والخوف إلى أمل،
والدموع إلى حياة.
فالمرأة في اليمن...
هي القلب الذي يحفظ النبض،
اليدين التي تبني المستقبل،
العقل الذي يدير الحياة،
والروح التي تصنع المستحيل.
حين تفكر في الوطن، تذكرها...
حين ترى صموداً في وجه الصعاب، تذكرها...
فهي ليست فقط من تحمل البيت على كتفها...
بل من تحفظ الوطن حياً، نابضاً، حياً بالأمل،
بقوة قلبها، وبصمت دموعها، وبشجاعة حياتها اليومية.
فحين تقف المرأة... يقف الوطن.
وحين تنهض المرأة، تنهض الحياة بكل ألوانها.

انتظار الأمهات و الزوجات:

"خلف كل بابٍ موصد..

امرأةٌ تَخيطُ خيوطَ الفجرِ بالدعاء،

وتؤمنُ أن الغائبين..

هم نبضٌ لا بدَّ أن يعود."

رحمة محمد

✧ انتظار الأمهات والزوجات ✧

في بيوت كثيرة...

لا يسكن الصمت وحده، بل يسكن الانتظار.

أمّ تجلس قرب باب بيتها كل مساء، تنظر إلى الطريق الطويل الذي أخذ ابنها يوماً بعيداً. تمر الأيام ببطء، تتبدل الفصول، لكن قلبها يبقى في تلك اللحظة التي ودّعته فيها.

تتذكر خطواته الصغيرة حين كان طفلاً يركض نحوها، وصوته وهو يناديها كل صباح.

اليوم لم يبق سوى الذكريات... وصورة معلقة على الجدار.

كل ليلة ترفع يديها إلى السماء وتهمس:

"يا رب... فقط أعده سالمًا."

وفي بيت آخر، تجلس زوجة قرب نافذة صغيرة، تراقب هاتفها بصمت.

تنتظر رسالة قصيرة من زوج أخذته الغربة بعيداً ليبحث عن لقمة العيش.

رسالة واحدة فقط...

كلمة واحدة...

لتطمئن أن قلبه الذي هناك ما زال يتذكر الطريق إلى البيت.

الانتظار ليس مجرد وقت يمر...

بل حكاية صبر طويلة، تعيشها قلوبٌ تعلمت أن تحب رغم الغياب، وأن
تصمد رغم الألم.

في اليمن...

هناك أمهات ينتظرن أبناءهن، وزوجات ينتظرن رجالهن، وبيوتٌ كاملة تعيش
على أمل العودة.

فالانتظار هنا... ليس ضعفاً.

إنه شكلٌ آخر من أشكال الحب.

ليس كل من غادر الوطن يعود في الوقت الذي وعد به.

بعضهم تأخذه الطرق بعيداً،

وبعضهم يضيع في المسافات،

وبعضهم يعود... لكن بعد سنواتٍ من الانتظار.

وفي كل بيتٍ بقي الباب نصف مفتوح،

والهاتف قريباً من القلب،

لأن أمّاً ما زالت تؤمن أن الخطوات التي غابت يوماً... قد تعود.

❖ أمهاتٌ ينتظرن عند الباب ❖

أمّ...

ويا لها من أم.

صابرة، مقاومة، ساكنة، واثقة بالله.

تودّع ابنها للمرة الأولى وهو يغادر البيت،

وما يزال في عمر الطفولة.

لكنهم تعودوا على حياة الكدح والعمل...

يحملون المسؤولية منذ صغرهم،

ويرثون الطريق الطويل قبل أن يعرفوا أنفسهم.

ها هو يخرج مودّعاً أهله،

يسير في طريق لم تطأه قدمه من قبل،

وفي أرض لم يعرفها،

مع أولادٍ في مثل عمره.

يضع ثقته بالله أولاً،

ثم ببعضهم البعض.

أما عين الأم...

فلا تجف من الدموع،

ولا يهدأ قلبها،

ولا ينام لها جفن.

تظل تسأل نفسها في صمت:

أين هو الآن؟

في صحراء قاحلة؟

أم في وادٍ خالٍ؟

هل أكل؟

هل شبع؟

هل وصل بسلام؟

هل سيعود إليّ يوماً...

أم ستبقى صورته في ذاكرتي فقط؟

قد لا يعود...

قد لا ترى جثته،

قد يُدفن في منفاه بعيداً،

ولا تستطيع أن تلمسه،

ولا أن تقبل جبينه

قبل أن يرحل إلى الأبد.

وهكذا يحدث كثيراً...

قصصٌ لا تحصى لأولئك الذين خرجوا طلباً لحياةٍ أفضل.

أبٌ لا يعود...

وولدٌ صغير يحمل مسؤولية عائلته،

يكافح، ويناضل،

ويواجه الغربة وحده.
طفولته ضاعت
بين صبره وواجهه.
هكذا هي الحياة قاسية...
لكن في قسوتها
تظهر القوة الصامتة للأمهات،
اللواتي ينتظرن عند الباب...
صابرات،
مؤمنات،
لا ينهكهن الانتظار،
ولا يطفئ الحزن نور قلوبهن.

✧ قبل أن تغادر الحياة ✧

سنوات طويلة مرّت...
وابنها بعيد في الغربة.
في البداية، كان الاتصال كثيرًا،

وصوته يملأ البيت دفئًا وطمأنينة.
ثم بدأت الأيام تسرقه شيئًا فشيئًا.
صار الاتصال أقل،
والرسائل أقصر،
حتى أصبح حضوره في البيت مجرد صورة معلقة على الجدار، واسم يتكرر
في الدعاء.
لكن قلب الأم لا يعتاد الغياب أبدًا.
كانت تنتظره كل يوم،
تسأل عنه،
وتحاول أن تخفي شوقها خلف كلمات بسيطة: "الله يحفظه ويرده سالم."
ومع مرور الوقت...
مرضت.
أصبح جسدها أضعف من أن يقاوم،
وصوتها خافتًا،
وخطواتها بطيئة كأن الحياة تنسحب منها بهدوء.
كانت تعرف في داخلها أن أجلها اقترب،
لكن أكثر ما كان يؤلمها
أنها قد تغادر الدنيا دون أن ترى ابنها مرة أخيرة.
لم تكن تريد شيئًا من الحياة.
لا مالًا،
ولا علاجًا،

ولا عمرًا أطول...
كانت تريد فقط
أن تراه.
أن تلمس وجهه بيديها،
أن تضمّه إلى صدرها،
أن تسمع صوته قريبًا منها لا عبر هاتفٍ بارد.
وحين علم ابنها بحالتها،
عاد مسرعًا.
كان الطريق طويلًا،
وقلبه يركض أسرع من خطواته.
الخوف يأكله من الداخل: "ماذا لو وصلت متأخرًا؟"
وحين دخل البيت،
شعرت به قبل أن تراه.
رفعت رأسها بصعوبة،
وحين وقعت عيناها عليه،
ارتجف وجهها بالبكاء والفرح معًا.
مدّت يديها المرتجفتين نحوه،
كأنها تخشى أن يختفي إن لم تلمسه سريعًا.
اقترب منها،
فارتمت عليه بكل ما بقي في قلبها من شوق.

كانت تضمّه بقوة أمّ انتظرت سنوات،

وتقبّل رأسه،

وعينيّه،

ويديّه،

وكتفيّه،

كأنها تحاول أن تعوّض بلمساتها كل أيام الغياب التي سرقتها الغربة منهما.

كانت تبكي وهي تبتسم،

تتحسس وجهه بصمت،

وكأن قلبها يريد أن يحفظ ملامحه مرةً أخيرة قبل الرحيل.

أما هو...

فكان يبكي كطفل صغير،

يشعر بثقل السنوات التي أخذته بعيداً عنها،

وبالذنب لأنه تركها تواجه الشوق وحدها كل هذا الوقت.

وفي تلك اللحظة،

لم يكن هناك مرض،

ولا تعب،

ولا خوف من الموت...

كان هناك فقط

أمّ عاد إليها ابنها أخيراً،

فقبلت الحياة مرةً أخيرة من خلاله.

✧ الذي لم يعد... ولم يُودّع ✧

خرج شاب في بداية حياته...

حلمه بسيط: أن يؤمّن مستقبلًا لطفل لم يولد بعد.

كانت زوجته في بداية حملها، تمشي بخفة، تخفي خوفها خلف ابتسامة مشجعة، تقول له:

"اذهب... الله معك."

ودّع أمه، قبل رأسها، وضمّ أخواته واحدًا واحدًا، ثم نظر طويلاً إلى بطن زوجته... كأنه يحاول أن يحفظ شكل الحياة التي لم يرها بعد.

كان قلبه مليئًا بالأمل، وخوفه مختبئًا وراء شجاعة تبدو للجميع عادية... لكنه كان حملًا ثقیلاً على كتفيه.

ذهب مع أصدقائه بلا تصريح، وقطعوا الجبال والوديان، مشي طویل، ركض حين يداهمم الخوف، ليال باردة ونهارات تحرق الجلد.

ثم... تفرّقوا.

قال أصدقاؤه إن كل واحد سلك طريقًا مختلفًا، لكنهم لم يعرفوا — أو لم يقولوا — ماذا حدث له.

منذ تلك اللحظة، انقطعت أخباره.

لا جثمان عاد.

لا اتصال وصل.

لا قبر يُزار.

لا يقين يُريح القلوب.

الأم

الأم لم تيأس.

كل صباح تفتح الباب، وتنظر إلى الطريق الطويل، ترفع رأسها عند كل صوت سيارة، كأنها تتوقع أن يرى عينيها قبل أن يفتح الباب.

تحضر الطعام، ترتب البيت، لكنها تجلس بعد قليل، تفكر أنه لن يجلس إلى المائدة أبداً.

كل يوم صلاة، كل دعاء، كل ليلة تمتمات صغيرة:

"يا رب إن كان حياً فاحفظه... وإن كان ميتاً فارحمه... بس طمّني عليه."

دموعها الصامتة، حزنها العميق، صمتها الطويل... كلها تعبير عن انتظار لم ينته، وعن أمل متجدد رغم كل شيء.

قبل فترة، شاهدت على وسائل التواصل خبراً عن مفقودين عند الحدود اليمنية السعودية، تبادلت الحديث مع الآخرين، ذهبوا للبحث، لكن لم يكن هو... لم يعد بعد.

قلبها ارتجف، عاد الأمل للحظة، ثم خابت التوقعات.

ولكنها لم تيأس... لم تستسلم.

الزوجة

زوجته معلقة بين حالتين...

لا هي فقدته فتستطيع الحداد، ولا هو عاد فتستطيع الفرح.

كبر ابنها الوحيد تحت عينيها، وهي تربيته بحب لا ينتهي، تحاول أن تمنحه دفء الأب الذي لم يره أبداً.

كل يوم تمشي في البيت، ترتب الألعاب، تحضر الطعام، تضحك للطفل، وتخفي ألمها العميق.

ترتدي ملابسها، تتحدث مع نفسها، تمسح دموعها بصمت،
وفي الليل، حين يسكن العالم، تجلس مع صورته، تتذكر الابتسامة، الصمت
الذي كان يعانقها، وتحاول أن تمنح قلبها قوة لم تعد تمتلكها الكلمات.
هي التي حملت الحمل والبيت والطفل والانتظار... جميعهم في قلبها
وحدها.

الطفل

الطفل يسأل أحياناً:

"أين أبي؟"

تبتسم له ابتسامة مكسورة، تقول: "مسافر..."

هو لا يعرف شكل والده، ولا صوته، ولا حضنه، لكنه ينمو وسط حنانها،
وسط صبرها، وسط الانتظار الذي أصبح جزءاً من حياته.

البيت والانتظار

البيت صامت، كل زاوية تحكي عن رجوع لم يحدث.

أحياناً يضحك الطفل، فتغضب الزوجة نفسها من ابتسامته لأنها تذكرها بما
فقد.

الأم تتذكر الأيام التي كان فيها كل خطوة بسيطة فرحة، وكل كلمة صغيرة
تعني العالم كله.

والآن، كل شيء صامت، وكل قلب ينتظر، وكل دمعة صامتة لكنها ثقيلة
كالجبل.

الحب الذي لا يموت

ليس كل من غاب مات...

وليس كل من ينتظر يملك صبراً لا ينكسر.

لكن الحب يظل واقفًا عند الباب.

الحب صامد، صامت، عميق، يحمل ذكرى الشاب، حبه للعائلة، وذكراه التي
تحرس البيت بأمل وصبر

❖ استودعتك الله... ❖

حين ودّعت الأم ابنها الزاهب إلى الجبهة،

لم تكن تملك له درعًا يحميه،

ولا طريقًا تعيده سالمًا،

فأودعته عند الله...

كما تفعل الأمهات حين يعجز القلب عن الاحتمال.

كانت دموعها تنحدر بصمت على وجنتيها،

وفي كل مرة يلتفت إليها،

تبتسم له ابتسامة مرتجفة،

ثم تردد بصوت مكسور: «استودعتك الله الذي لا تضيع ودائعه.»

ظلت واقفة عند الباب

تراقب السيارة وهي تبتعد شيئًا فشيئًا،

حتى غابت تمامًا عن عينيها،

وكان جزءًا من روحها رحل معها.

دخلت البيت ببطء،
تتحسس الجدران التي كانت تحفظ صوته،
وتتمسك بالدعاء كما يتمسك الغريق بخشبة نجاة.
كانت تردد اسمه في سجودها،
وفي يقظتها،
وفي خوفها الطويل كل ليلة.
مرّت أربعة أشهر ثقيلة،
أربعة أشهر من الانتظار والقلق والدعاء،
حتى جاء الخبر...
لم يكن خبر عودته...
بل خبر استشهاده.
لم يعد كما خرج،
لم يصل جسده كاملاً،
وصلت أشلاء تحمل اسمه،
وتحمل وجع أمّ لن يلتئم أبداً.
وقفت تنظر إليها بعينين مدهولتين،
كأن عقلها يرفض الاعتراف بما ترى،
وهمست بصوت مرتعش: «هل هذا ابني؟...»
هل يمكن أن يكون ابني قد صار هكذا؟
امتلاً البيت بالعزاء،

بالدموع،
بالصمت الثقيل،
لكن قلبها لم يسلم للحقيقة كاملة.
كانت، بعد انتهاء المعزّين،
تقف عند الباب كل مساء،
تحدّق في الطريق طويلاً،
كأنها تنتظر أن يعود فجأة،
أن يطرق الباب مبتسماً،
أن يقول لها: «يمّه... وصلت.»
لكن الباب ظل صامتاً،
والطريق خالياً،
ولم يبقَ لها
إلا الدعاء...
وذكرى صوتٍ كان يملأ البيت حياة.

❖ أمّ تنتظر بين الموت والأمل ❖

لم تبك كما بكت بقية الأمهات.
كانت تبكي... ثم تتوقف فجأة،

كأن قلبها يرفض التصديق.
جاءهم الخبر في ليلةٍ ثقيلة:
"ابنك استشهد."
امتلاً البيت بالناس،
ارتفعت أصوات العزاء،
وامتلأت الجدران بعبارات الصبر والدعاء.
لكن شيئاً واحداً كان ناقصاً...
هو.
لم ترَ وجهه الأخير.
لم تقبل جبينه.
لم تلمس يده الباردة للمرة الأخيرة.
لم يحمل على أكتاف الرجال إلى المقبرة،
ولم تسمع صوت التراب وهو يُغلق عليه.
كان مجرد خبر.
قالوا إنه مات في الجبهة.
لكن أين جثمانه؟
أين قبره؟
أين آخر أثر يدلّ عليه؟
ومنذ ذلك اليوم...
لم تستطع أمّه أن تعتبره ميتاً بالكامل.

كانت تجلس قرب التلفاز تتابع أخبار الأسرى،
تحفظ أسماء السجون،
وتصغي لكل إعلان إفراج وكأن قلبها يُسحب من صدرها.
كلما رأت شابًا نحيلاً يخرج من الأسر،
تقترب من الشاشة أكثر،
ترتجف يداها،
وتهمس:
"يمكن... يمكن يكون ابني بينهم."
الناس من حولها كانوا قد أنهوا الحزن،
وعادوا إلى حياتهم.
أما هي...
فبقيت معلقة بين احتمالين: ابنٌ مات ولم تودعه،
أو ابنٌ حيٌّ ينتظر من ينقذه.
حتى بعد إقامة العزاء،
حتى بعد كلمات المواساة،
حتى بعد أن خفت زيارات الناس...
كانت ما تزال تترك باب البيت مفتوحًا قليلًا في الليل،
وكان قلبها يقول: "ربما يعود متعبًا... ويطرق الباب."
الأمهات لا يصدقن الغياب بسهولة.
خصوصًا حين لا يوجد قبر،

ولا وجه أخير،

ولا وداع.

تبقى الأم عالقة في منتصف الألم:

لا هي قادرة على البكاء الكامل،

ولا قادرة على الاطمئنان.

وهكذا تعيش بعض الأمهات في اليمن...

ينتظرن أبناءً لا يعرفن إن كانوا تحت التراب،

أم خلف القضبان،

أم في طريق طويل يحاول العودة إلى البيت.

✧ طفولة لم يشهدها ✧

حين غادر زوجها،

كان ابنهما الأكبر لا يزال يتعثّر في خطواته الأولى.

حمله بين ذراعيه طويلاً قبل السفر،

قبّل جبينه،

وضمّه إلى صدره،

ثم التفت إلى زوجته وقال:

"لن أطيل الغياب...
عام أو عامان وأعود."

ابتسمت وهي تحاول أن تخفي دموعها،
وهزت رأسها موافقة.

كانا يصدّقان أن الغربة قصيرة.

لكن الغربة لا تسأل الناس عن خططهم.

مرّ العام الأول...

ثم الثاني...

ثم أعوام أخرى.

وكانت العودة تتأجل في كل مرة.

في البداية،

كان الطفل يسأل عن أبيه كثيرًا.

يشير إلى صورته المعلقة على الجدار ويقول:

"متى يأتي أبي؟"

فتبتسم أمه وتجيبه:

"قريبًا يا حبيبي."

وكانت تؤمن بذلك حقًا.

لكن كلمة "قريبًا" بدأت تكبر هي الأخرى،
حتى أصبحت سنوات.

كبر الطفل.

ودخل المدرسة.

وحضر أول يوم دراسي دون أن يمسه والده بيده.

ونجح في صفه الأول،

ثم الثاني،

ثم الثالث.

وكان الأب يرى ذلك كله عبر الصور.

صورة يحمل فيها حقيبتة الجديدة.

وصورة أخرى وهو يقف بين زملائه.

وصورة ثالثة وهو يبتسم بفخر بعد نجاحه.

أما الأب،

فكان يحدق في الصور طويلاً.

يحاول أن يلتقط من خلالها ما فاتته من عمر ابنه.

وكان يشعر في أعماقه أن الأيام تمضي أسرع من قدرته على اللحاق بها.

ثم جاء طفل آخر.

وكبرت الأسرة.

وأصبحت الزوجة تدير البيت وحدها.

كانت تستيقظ قبل الجميع،
وتنام بعد الجميع.

تتابع دراسة الأطفال.

وترافقهم إلى الطبيب.
وتعيش كل تفاصيل الحياة اليومية وحدها.
وحين يسألها الناس:

"كيف حال زوجك؟"

كانت تبتسم وتقول:

"الحمد لله."

ثم تبتلع شوقها بصمت.

وفي كل مرة يعود فيها الزوج في إجازة قصيرة،
كان البيت يمتلئ بالفرح.

لكن الأطفال كانوا يحتاجون أيامًا ليتعودوا على وجوده.

فهو الأب الذي يحبونه،
لكنهم لم يعيشوا معه بما يكفي.

وكان ذلك يؤلم قلبه.

فهو يعرف أسماء أبنائه،
ويحبهم أكثر من نفسه،
لكنه لم يشهد معظم تفاصيل طفولتهم.

لم يكن موجودًا عندما نطقوا كلماتهم الأولى.

ولا حين سقطوا وتعلموا المشي.

ولا حين مرضوا وبكوا ليلاً.

كانت أهمهم هي الشاهدة على كل ذلك.

ثم تنتهي الإجازة.

وتعود الحقائق إلى منتصف الغرفة.

ويعود الوداع من جديد.

ويعود الطريق الطويل.

وتعود الزوجة إلى نافذتها المعتادة.

تمر السنوات...

وفي أحد الأيام،

وقفت الأم تنظر إلى ابنها الأكبر.

لم يعد ذلك الطفل الذي كان يبكي شوقاً إلى أبيه.

أصبح شاباً.

أطول منها قامة.

وأقرب إلى ملامح والده من أي وقت مضى.

عندها شعرت بشيء من الدهشة.

متى كبر؟

ومتى مرّ كل هذا العمر؟

وكيف استطاعت الغربة أن تسرق كل هذه السنوات؟

وفي مكان بعيد،

كان الأب ينظر إلى صورة جديدة لابنه.

شاب يقف بثبات،

وعينه تشبهان عينيه.

فابتسم بحزن جميل.

وأدرك أن أبناءه كبروا...

بينما كان يحاول أن يصنع لهم حياة أفضل.

كبروا وهو بعيد.

وكبرت معهم أمنية واحدة في قلبه:

أن يأتي يومٌ لا يودّعهم فيه مرة أخرى.

✧ موعد المكالمة ✧

لم تكن تنتظر عيداً،

ولا مناسبةً كبيرة،

ولا زائراً يطرق الباب.

كانت تنتظر صوتاً.

صوت ابنها الذي سافر بعيداً بحثاً عن رزقه،
وترك خلفه أمّاً تعيش على بضع دقائق من الحديث كل أسبوع.

منذ صباح يوم الجمعة،
كانت تبدأ استعدادها الصغير.

تنتهي أعمال البيت مبكراً،
وتضع هاتفها بقربها،
وتطلب من الجميع ألا يبتعدوا كثيراً إذا احتاجت إلى المساعدة.

كانت تعرف أن موعد الاتصال لم يعد ثابتاً كما كان،
فأحياناً يتصل ظهراً،
وأحياناً بعد العصر،
وأحياناً يتأخر إلى المساء.

لكنها كانت تنتظر طوال اليوم.

كلما أضاءت شاشة الهاتف،
خفق قلبها.

وكلما سمعت رنينًا،
أسرعت إليه قبل الجميع.

فإن لم يكن هو،
ابتسمت بخيبة صغيرة،
ثم عادت إلى انتظارها.

وكان القلق يبدأ بالتسلل إلى قلبها إذا تأخر.

تسأل نفسها بصمت:

هل هو بخير؟

هل أصابه مكروه؟

هل مرض؟

هل تعب؟

ثم تستغفر الله وتلوم نفسها على هذه الأفكار.

وتقول:

"الله يحفظه..."

أكيد مشغول."

لكن قلب الأم لا يعرف الراحة بسهولة.

كان يعرف أن المسافات طويلة،

وأن الغربة قاسية،

وأن الإنسان حين يكون بعيداً عن أهله يصبح أكثر عرضة للوحدة والتعب.

وحين يأتي الاتصال أخيراً...

يتغير كل شيء.

يضيء وجهها كما لو أن الشمس دخلت البيت.

تجيب بسرعة وكأنها تخشى أن ينقطع الخط قبل أن تسمع صوته.

"السلام عليكم يا أمي."

فتمتلئ عيناها بالدموع.

ذلك الصوت الذي لا يستغرق وصوله سوى ثوانٍ عبر الهاتف،
كان يقطع آلاف الكيلومترات ليصل إلى قلبها.

تسأله عن صحته،

وعمله،

وطعامه،

ونومه.

وتكرر السؤال نفسه أكثر من مرة.

ليس لأنها نسيت،

بل لأنها تريد أن تطمئن أكثر.

أما هو،

فيحاول أن يخفي تعبهُ خلف ضحكته.

ويقول دائماً:

"أنا بخير يا أمي."

فتدعو له طويلاً.

وتوصيه بنفس الوصايا التي قالتها له مئات المرات:

"انتبه على نفسك."

"لا تتأخر في الأكل."

"لا تتعب كثيراً."

وتبتسم وهي تسمع صوته.

كأنها تراه أمامها.

تمر الدقائق سريعاً.

أسرع مما ينبغي.

ثم يأتي وقت الوداع.

فيقول:

"استودعكم الله."

فترد بصوتٍ يختلط فيه الحب بالدعاء:

"الله يحفظك ويردك إلينا سالمًا."

وينتهي الاتصال.

يعود البيت هادئًا كما كان.

لكن قلبها يصبح أخف.

تجلس قليلًا وهي تتذكر كلماته،

وتعيد الحديث في ذاكرتها مرةً بعد مرة.

ثم تبتسم.

لقد سمعت صوته.

وهذا يكفيها لأسبوع آخر من الصبر.

هكذا تعيش أمهات كثيرات...

لا ينتظرن أموالاً،

ولا هدايا،

ولا أشياء ثمينة.

ينتظرن فقط صوتاً يقول:

"أنا بخير يا أمي."

فتطمئن قلوبهن،

ويبدأن أسبوعاً جديداً من الانتظار.

✧ عشر سنوات من الانتظار ✧

كانت في بداية شبابها.

تحمل طفلها الأول في أحشائها،
وتحمل أحلامًا صغيرة تشبه أحلام كل زوجة جديدة.

كان زوجها يستعد للسفر،
يحلم بأن يعود وقد استطاع أن يؤمّن لعائلته حياة أفضل.

ودّعها يومها،
ووضع يده على بطنها المنتفخ،
وابتسم وهو يتحدث إلى طفله الذي لم يولد بعد.

لم يكن يعلم أن تلك اللحظة ستكون آخر لقاء بينهما لسنوات طويلة.

سافر...

ثم جاء الخبر الذي قلب حياتها كلها.

اعتقل.

وفي لحظة واحدة،
تحولت الأحلام إلى انتظار.

لم تعد تعرف متى سيعود.

ولا متى ستراه.

ولا إن كانت السنوات القادمة ستجمعهما أم ستزيد بينهما المسافات.

مرت الأيام ثقيلة.

ثم الشهور.

ثم السنوات.

وولد طفلها.

كبر وهو يعرف والده من الصور والكلمات والحكايات.

كلما سأل عنها،
كانت تجلس بجانبه وتحكي له.

تحكي عن طيبة قلبه.

وعن أحلامه.

وعن اليوم الذي خرج فيه بحثًا عن مستقبل أفضل.

أما هي...

فكانت تعيش بين مسؤوليات الحياة والانتظار.

تحمل هم البيت.

وتربي طفلها.

وتخفي دموعها خلف ابتسامة هادئة.

كانت تسمع الناس يقولون:

"ما زلت صغيرة."

"الحياة أمامك."

"لا أحد يعرف متى سيخرج."

لكن قلبها كان متعلقًا بذلك الرجل الذي ترك لها ذكرياتٍ تكفي عمرًا كاملًا.

ومع مرور السنوات،

استطاع أن يتصل بها من سجنه.

كان صوته متعبًا،

مثقلًا بأعوام الحرمان.

قال لها:

"لا أريد أن يضيع عمرك بسببي."

وسكت قليلاً.

ثم أكمل بصوتٍ مكسور:

"إذا وجدت أن الزواج أفضل لك..."

فتزوجي."

لم يكن يقول ذلك لأنه توقف عن حبها.

بل لأنه أحبها أكثر من نفسه.

أراد لها حياةً طبيعية.

وأراد أن يحررها من قيود الانتظار الطويل.

لكنها رفضت.

رفضت بهدوء يشبه يقينها.

وقالت له:

"لم أنتظرك لأنني مجبرة.

أنا أنتظرك لأنني أحبك."

ثم أخبرته أنها ستبقى متمسكة بالأمل،

وأن السنوات مهما طالت لن تمحو ما بينهما.

انتهت المكالمة.

وبقيت الكلمات عالقة في قلب كل واحدٍ منهما.

واليوم...

مرّت عشر سنوات.

عشر سنوات من الانتظار.

عشر سنوات من الدعاء.

عشر سنوات من الأمل الذي يتجدد كلما خفت نوره.

كبر الطفل الذي كان في أحشائها يوم سافر.

وأصبح شابًا.

أما هي...

فما زالت تحتفظ بذكرياته.

وما زالت تدعو له في صلاتها.

وما زالت تنتظر اليوم الذي يعود فيه.

ليس لأنها لا تعرف قسوة السنوات.

بل لأنها تؤمن أن بعض القلوب تبقى وفية،
حتى وإن وقفت بينها وبين من تحب جدران السجون،
وطول المسافات،
وثقل الزمن.

وهكذا تعيش بعض الزوجات...

لا يحرسن البيوت فقط،

بل يحرسن الذكريات،

والوعود،

والحب الذي يرفض أن يموت مهما طال الانتظار.

✧ خاتمة الفصل ✧

في هذا الوطن...

لا تقاس السنوات دائماً بالتقويم،

بل بما يتركه الغياب في القلوب.

هناك أمّ ما زالت تنظر إلى الطريق كل مساء،

وأخرى ما زالت تحتفظ بصورة ابنها قرب وسادتها،

وثالثة ترفع يديها بالدعاء كلما سمعت خبراً عن عودة غائب أو إفراج أسير.

وهناك زوجات تعلمن أن يخفين الدموع خلف الابتسامات،
ويواصلن الحياة رغم أن جزءاً من قلوبهن يعيش في مكان بعيد.

بعض المنتظرين عادوا...
فعادت معهم الحياة إلى البيوت.

وبعضهم تأخروا،
فكبر الأطفال، وشاب الآباء، وتبدلت الوجوه، بينما بقي الشوق كما هو.

وبعضهم غابوا حتى أصبح الغياب نفسه حكاية تروى للأبناء.

لكن شيئاً واحداً لم يتغير.

ذلك الأمل الصغير الذي يسكن القلوب.

الأمل الذي يجعل أمّاً تفتح الباب كل صباح.

ويجعل زوجة تحفظ الذكريات من النسيان.

ويجعل الدعاء يتكرر في كل صلاة:

"اللَّهُمَّ احفظهم أينما كانوا، وأعدهم إلى أهلهم سالمين."

فالانتظار ليس مجرد حزن.

إنه حبٌ يرفض أن يتعب.

ووفاءٌ يرفض أن يرحل.

وصبرٌ لا يتعلمه إلا الذين جربوا الغياب طويلاً.

وهكذا تبقى الأمهات...

ويبقين الزوجات...

حارساتٍ للأمل.

يحفظن البيوت من الانكسار،

والذكريات من الضياع،
والقلوب من اليأس.

فإذا كتبت حكايات الرجال الذين رحلوا يوماً،
فإن خلف كل حكاية منهم
أمًا انتظرت،
أو زوجة صبرت،
أو قلبًا ظلّ يدعو في صمت.

وإذا كان للانتظار وجهٌ في اليمن...

فهو وجه أمّ تنظر إلى الطريق،
وزوجة ما زالت تؤمن أن الغائبين،
مهما طالت المسافات بينهم وبين من يحبون،
سيجدون يوماً طريق العودة إلى البيت.

طفولة بلا أب:

"كانوا صغارًا حين رحل..."

فكبروا وهم يبحثون في الحكايات عن أبٍ لم تمنحهم الحياة ما يكفي من الوقت ليعرفوه.

رحمة محمد

طفولة بلا أب

هناك طفل يركض في فناء البيت...

يسمع ضحكات أقرانه وهم ينادون آباءهم، ويروي أحدهم بفخر: "أبي اشترى لي هذه اللعبة!"

فيتوقف لحظة... ينظر إليهم بصمت، ثم يكمل طريقه وكأن شيئاً لم يحدث. هو لا يعرف حزن أبيه... ولا صوته الذي يقول له: "أنا هنا... لا تخف."

يكبر بين كلمات تحكى عن رجل غائب، وعيون تبحث عن ظل لم يكتمل حضوره في حياته، وقلب صغير يتعلم مبكراً معنى النقص دون أن يختاره. لكن هذه اللحظة ليست وحدها...

ففي هذا الفصل، تتعدد الوجوه، وتتشابه الحكايات رغم اختلاف التفاصيل. طفلٌ يكبر قبل أوانه، وفتاة تنتظر كلمة "ابنتي" التي لم تقال، وبيتٌ يُدار بيدٍ صغيرة تحاول أن تكون أباً قبل أن تكون ابناً، وقلوبٌ تعيش على الذكرى والانتظار.

في "طفولة بلا أب"... لا نحكي غياب شخص، بل نحكي كيف يكبر الغياب داخل الحياة نفسها.

✧ حين عاد الأب في الصورة فقط ✧

كان يعرف والده من صورةٍ معلقة على الجدار.
كل صباح يمرّ تحتها، ينظر إليها سريعًا، ثم يخرج إلى المدرسة.
لم يكن يتذكر ملامحه جيدًا، فهو حين غادر كان ما يزال صغيرًا جدًا.
لكن الجميع كانوا يقولون له:
"أنت تشبه أباك."
فبيتسم.

لم يكن يعرف إن كان يجب أن يفرح أم يحزن.
في المدرسة، كان يسمع أصدقاءه يتحدثون عن آبائهم.
هذا ذهب مع أبيه إلى السوق.
وذلك علمه أبوه ركوب الدراجة.
وآخر عاد والده من السفر وأحضر له هدية.
أما هو...

فلم يكن يملك قصةً يرويها.
كان يبتسم فقط، ويستمع.
وفي طريق العودة إلى البيت، كان يفكر:
كيف يكون شعور الطفل حين يمسك يد أبيه؟
كيف يبدو صوته حين يناديه؟
وكيف يكون حضنه؟

أسئلة كثيرة، لا يملك لها جوابًا.
وفي المساء، كانت أمه تجلس بجانبه.
تحكي له عن والده.
عن طيبة قلبه.
عن ضحكته.
عن أحلامه.
وعن حبه الكبير له قبل أن يولد.
كان يستمع باهتمام، كأن أمه تجمع له أجزاء رجل لم يعرفه.
وحين ينتهي الحديث، يرفع رأسه إلى الصورة المعلقة على الجدار.
ويتأملها طويلاً.
كأنه يحاول أن يصنع ذكرى من صورة.
مرت السنوات...
وكبر الطفل.
لكن شيئًا واحدًا بقي كما هو:
كلما رأى أبًا يسير مع ابنه، شعر بفراغ صغير في قلبه.
فراغ لا يراه أحد.
ولا يعرفه إلا الأطفال الذين كبروا وهم يتعلمون معنى الأب من الحكايات، لا
من الحياة.

✧ كانت تنتظر كلمة: ابنتي ✧

كبرت...

وهي لا تعرف أباه.

لم تحفظ ملامحه من الذاكرة، ولم تتذكر صوته، ولم تمسك يده يوماً.

كانت تعرفه فقط من الحكايات.

من كلمات أمها.

ومن ذكريات إخوتها الأكبر منها.

كل واحد منهم كان يحمل ذكرى معه.

إلا هي...

لم يكن لها من الذكريات شيء.

كانت تسمعهم يتحدثون عنه، فتجلس بصمت.

تحاول أن تتخيل وجهه.

صوته.

ضحكته.

وطريقة مناداته لأطفاله.

وكان أكثر ما تتمناه في الدنيا أن تسمعه مرة واحدة فقط يقول:

"ابنتي..."

أو:

"صغيرتي..."

كانت تريد هذه الكلمة أكثر من أي شيء آخر.
في بداية كل عام دراسي، كانت ترى الآباء يمشون إلى جانب بناتهم.
يشتركون لهن الحقائق والدفاتر والأقلام.
ويختارون معهن الزي المدرسي.
أما هي...

فكانت تذهب مع أمها.
وتحاول أن تبدو قوية.
لكن قلبها الصغير كان يعرف ما ينقصه.
وفي المدرسة، كان بعض الآباء يزورون أبناءهم.
يسألون عن مستواهم الدراسي.
ويفرحون بنجاحهم.
أما هي...

فكانت تحمل شهادتها بيديها الصغيرتين، وتعود بها إلى البيت.
كانت تتمنى لو أن هناك أبًا تنتظره عند الباب.
أبًا تربه درجاتها.
أبًا يقول لها:
"أنا فخور بك."

كانت تسمع هذه العبارة في خيالها فقط.
وحين تأتي الإجازات، كانت ترى الأطفال يركضون لاستقبال آبائهم العائدين
من الغربة.
يتعلقون بأعناقهم.

ويحكون لهم كل ما حدث في غيابهم.
وتملأ الهدايا البيوت.
أما هي...
فلم تكن تنتظر أحداً.
كانت تراقب فرحتهم من بعيد.
وتبتسم لهم.
ثم تعود إلى غرفتها بهدوء.
وحين يأتي رمضان، كانت تسمع الأطفال يتحدثون عن آبائهم الذين عادوا
لقضاء الشهر معهم.
وعن السهرات الجميلة.
وعن الهدايا.
وعن الضحكات التي ملأت البيت.
فتشعر أن هناك مكاناً فارغاً في قلبها لا يراه أحد.
ثم يأتي العيد.
العيد الذي ينتظره الأطفال بفرح.
كانت تسمع صديقاتها يقلن:
"أبي اشترى لي فستان العيد."
"وأبي سيأخذني غداً إلى السوق."
"وأبي وعدني بهدية جميلة."
فتبتسم...
وكان الأمر لا يؤلمها.

لكنها في داخلها كانت تتمنى شيئاً واحداً فقط.

لم تكن تريد لعبة.

ولا هدية.

ولا ثوباً جديداً.

كانت تريد أباً.

أباً يمسك بيدها في السوق.

أباً يختار لها ملابس العيد.

أباً يوقظها صباح العيد ويقول:

"كل عام وأنت بخير يا ابنتي."

مرت السنوات...

وكبرت الطفلة.

لكن الشوق لم يكبر معه فقط...

بل كبر أيضاً ذلك الفراغ الصغير الذي تركه غياب الأب.

ذلك الفراغ الذي لا تملؤه الهدايا، ولا الأيام، ولا السنين.

لأن هناك أشياء في الحياة لا يعوضها شيء.

ومن أصعبها...

أن تكبر طفلةً وهي تحلم بكلمة واحدة فقط:

"ابنتي." ::::

✧ المقعد الفارغ ✧

في كل مرة يزور فيها أولياء الأمور المدرسة للاطمئنان على مستقبل أبنائهم، كانت الأجواء تمتلئ بالحياة.

آباء يدخلون بخطوات واثقة، يسألون المعلمين، يتابعون مستوى أبنائهم، وتعلو وجوههم ابتسامات الفخر كلما سمعوا خبراً طيباً.

إلا هو...

كان دائماً يدخل وحده.

يمسك حقيبته الصغيرة، ويحاول أن يبدو طبيعياً، كأن الأمر لا يختلف عن غيره.

لكن داخله كان يعرف أن كل شيء مختلف.

كان يعرف المدرسة جيداً، الممرات، الأصوات، المقاعد...

لكن هناك مكان واحد كان يعرفه أكثر من أي شيء آخر.

ذلك المقعد القريب من المعلم.

المقعد الذي يجلس عليه الآباء حين يأتون للاطمئنان على أبنائهم.

كان بالنسبة له دائماً...

فارغاً.

في ذلك اليوم، كان المشهد كعادته.

آباء يسألون، ومعلم يشرح، وأحاديث تدور عن المستقبل.

أما هو...

فكان يجلس في صمته المعتاد.
يحاول أن يركز في الكلام، لكن عينه كانت تهرب دائماً إلى ذلك المقعد.
المقعد الذي لم يُكتب لاسمه يوماً.
وفي داخله سؤال واحد يتكرر بصمت:
"لو كان أبي هنا... هل كان سيشعر بالفخر؟"
لكن لا أحد يجيب.
انتهى الحديث ككل مرة...
وغادر بعض أولياء الأمور مع أبنائهم، والفرح يسبقهم إلى الخارج.
أما هو...
فبقي لحظة في مكانه.
ثم خرج وحده.
لكن في أحد الأيام، تغيّر شيء لم يكن في الحسبان.
بينما كان جالساً في الصف، سمع خطواتٍ مختلفة في الممر...
سريعة، وفيها توتر خفيف لا يشبه بقية الأيام.
ثم سمع صوته ينادي اسمه.
تجمّد للحظة.
رفع رأسه ببطء...
وكأنه لا يصدق ما يسمعه.
كان أخوه الأكبر واقعاً عند باب الصف.
لكن حضوره هذه المرة لم يكن عادياً.

كان في وجهه تعب الطريق، وحنين متأخر، وارتباك يشبه من يحاول أن يعوّض ما فات في لحظة واحدة.

اقترب منه بسرعة.

ولأول مرة منذ زمن طويل...

لم يقل شيئاً.

فقط فتح ذراعيه.

وفي لحظة واحدة، انهار كل ما كان يحاول أن يثبتته بداخله.

تعلق به كطفل صغير، رغم أنه لم يعد صغيراً في نظر أحد.

كان عناقاً طويلاً... لا يشبه اللقاء، بل يشبه محاولة يائسة لردّ غياب لا يرد.

ربت أخوه على ظهره بصمت، لكن ذلك الصمت كان أبلغ من الكلام.

كأنه يقول: "أنا هنا الآن... ولو متأخراً."

ثم جلس الأخ في ذلك المكان الذي ظلّ فارغاً طويلاً...

المقعد القريب من المعلم.

المقعد الذي لم يجلس فيه أحد باسمه من قبل.

جلس هذه المرة بهدوء، لا كبديل عن الأب... بل كسندٍ يحاول أن يخفف ثقل الفراغ فقط.

تحدث مع المعلم عن مستواه، عن دراسته، عن مستقبله.

لكن عينيه لم تفارقه.

كان ينظر إليه بين لحظة وأخرى، وكأن في نظراته اعتراكاً صامتاً: "كان يجب أن أكون هنا من قبل."

أما هو...

فكان يسمع الكلمات، لكن قلبه كان يسمع شيئًا آخر.

شيئًا يشبه الدفء، لكن تحته مرارة تأخر طويل.

وحين انتهى اللقاء، خرج مع أخيه بصمت.

في الطريق، لم يتحدث كثيرًا.

لكن شيئًا بداخله كان أخفّ من قبل.

ليس لأن المقعد امتلأ...

بل لأن أحدهم أخيرًا جلس فيه، ولو لحظة.

ومع ذلك...

حين عاد في اليوم التالي، نظر إلى المقعد نفسه.

كان ما زال هناك.

فارغًا كما كان...

لكن ليس تمامًا كما كان من قبل.

كأن الفراغ نفسه أصبح يعرف أن أحدًا مرّ به ذات يوم.

✧ الرسالة التي كبرت معه ✧

لم يكن يتخيّل أن ورقة صغيرة يمكن أن تغيّر حياة إنسان.

كانت مجرد رسالة... ورقة مطوية بعناية، وحروف كتبها أبّ يعلم أن طريقه قد يطول.

وصلت الرسالة في وقت لم يكن يفهم فيه معنى "الغياب" بعد.

كان ما يزال طفلاً، يظن أن الأب يعود كما يعود النهار كل مساء، وأن الوعود لا تتأخر.

جلس قرب أمه، وفتح الرسالة بيدين صغيرتين، لا تعرفان بعد ثقل الكلمات. كان خطأ أبيه مألوقاً، دافئاً، كصوت يأتي من مكان بعيد لكنه قريب من القلب.

قرأ أول سطر...

ثم توقف قليلاً.

شعر أن شيئاً بداخله تغير، دون أن يفهم لماذا.

كانت الرسالة قصيرة، لكنها كانت تحمل حياة كاملة.

كتب الأب:

"أنت الكبير يا ولدي..."

اهتم بأمك وإخوتك في غيابي.

ولا تترك دراستك مهما كانت الظروف.

العلم هو طريقك إلى المستقبل.

وسأرسل لكم المال في أقرب وقت."

لم يكن الطفل يدرك أن هذه الكلمات ليست مجرد نصيحة...

بل قدرٌ سيبدأ من تلك اللحظة.

أعاد قراءة الجملة الأخيرة مراراً، دون أن يفهم لماذا علقت في قلبه أكثر من غيرها.

"أنت الكبير..."

كلمة واحدة فقط.

لكنها كانت أثقل من عمره الصغير.

في الأيام الأولى، كان يحتفظ بالرسالة في مكان آمن، يخرجها بين وقت وآخر، يقرأها كما يقرأ الطفل قصة لا يريد أن تنتهي.

ثم تغيّر كل شيء.

غاب الأب.

ولم تعد الرسالة مجرد ورقة...

أصبحت بابًا يعود إليه كلما ضاق به العالم.

حين يشتد التعب، حين ترتفع مسؤوليات البيت فوق طاقته، حين يشعر أنه لم يعد طفلًا مثل الآخرين...

كان يفتح الرسالة.

يتوقف عند تلك الجملة تحديدًا:

"أنت الكبير يا ولدي."

ويصمت.

كأنها لا تقرأ فقط... بل تسمع من جديد.

كان يريد أن يعترض.

أن يقول: "أنا لست كبيرًا بعد... أنا طفل."

لكن لا أحد يسمعه.

سوى الورقة.

ومع السنوات، تغيّر كل شيء حوله...

كبر البيت على كتفيه قبل أن يكبر هو.

صارت أمه تعتمد عليه في أشياء لم يكن يتخيل يومًا أنه سيقوم بها.

وأصبح إخوته ينظرون إليه كما لو كان الأب الذي غاب.
كان يذهب إلى المدرسة وهو يحمل كتبه بيد...
وبيده الأخرى يحمل حياة كاملة لا يراها أحد.
يبتسم أمام أصدقائه، لكن داخله كان مزدحمًا بأسئلة لا تنتهي.
ومع كل عودة إلى البيت، كان يعود إلى الرسالة أيضًا.
ليس لأنها كلمات فقط...
بل لأنها الشيء الوحيد الذي بقي من أبيه كما هو.
لا يتغير. لا يرحل. ولا يخلد.
كان أحيانًا يضعها تحت الوسادة، كأنها تحرس نومه.
وأحيانًا يقرأها بصوت خافت، كأنه يحاول أن يجعل الأب يسمعه من جديد.
ومع مرور الوقت...
لم تعد الرسالة مجرد ذكرى.
أصبحت هوية.
كل قرار في حياته كان يمرّ عليها أولًا.
كل تعب كان يُقاس بها.
كل ضعف كان يُقابل بتلك الجملة:
"أنت الكبير يا ولدي."
كبر.
لكن ليس كغيره من الأطفال.
كبر وفي داخله جزء لم ينم يومًا.

جزء بقي واقفاً عند لحظة استلام الرسالة الأولى.

ومع ذلك...

لم ينهار.

أكمل طريقه.

درس، وتعب، وسقط، ونهض.

وحين كان يتأخر عليه الليل، كان يفتح الرسالة بصمت، ويقول لنفسه:

"لو كنتَ هنا يا أبي... هل كنت ستفخر بي؟"

ثم يسكت.

كأن الجواب مكتوب منذ البداية.

ومرت السنوات...

واصفرّ الورق من كثرة ما لمس.

وبهت الحبر قليلاً.

لكن الكلمات بقيت كما هي...

لم يغيّرْها الزمن، ولم يطفئها التعب، ولم تضعفها الأيام.

كانت الرسالة تكبر معه...

لأنها تتغير، بل لأنه هو الذي كان يكبر داخلها.

واليوم...

لم تعد الرسالة مجرد ورقة في درج قديم.

بل أصبحت قلباً آخر يسكن قلبه.

يذكره أن بعض الآباء لا يرحلون تماماً...

بل يتركون أبناءهم في جملة واحدة،
تعيش معهم عمرًا كاملًا.

✧ حين غاب الأب... كبر الابن ✧

لم يكن قد أكمل طفولته بعد.
كان ما يزال في العمر الذي يفكر فيه الأطفال باللعب، ويختلفون على أشياء
صغيرة، ويحلمون بأيام خالية من الهموم.
لكن الحياة كان لها رأي آخر.
في يوم واحد، تغير كل شيء.
غاب الأب...
وفجأة وجد نفسه واقفًا أمام مسؤوليات أكبر من عمره بكثير.
بيت كامل ينتظر من يحمله.
أم مثقلة بالحزن.
إخوة وأخوات صغار ينظرون إليه كلما احتاجوا شيئًا.
وكان هو...
ما يزال طفلًا.
لم يكن يعرف ماذا يفعل.

هل يتمسك بدراسته؟
أم يتركها لبحث عن عمل؟
هل يفكر في مستقبله؟
أم في مستقبل أسرته؟
أسئلة ثقيلة، كانت أكبر من أن يحملها قلبٌ صغير.
في ذلك الزمن، تكفلت الدولة ببعض أساسيات المعيشة، وكان ذلك سبباً في
أن يستمر في دراسته، ولو بصعوبةٍ بالغة.
كان يذهب إلى المدرسة، لكن عقله يبقى في البيت.
يفكر في أمه.
وفي إخوته الصغار.
وفي كل ما ينتظر عودته.
وحين يعود من دراسته، لا يعود طفلاً.
يعود مسؤولاً.
يتابع شؤون البيت، ويقف إلى جانب أمه، ويحاول أن يكون السند الذي
تركه غياب الأب.
مرت السنوات بطيئة وثقيلة.
وكان يكبر مع كل مسؤولية.
يكبر مع كل قرار.
ويكبر مع كل تضحية.
حتى أنه أحياناً كان يشعر أن طفولته مرت من جانبه دون أن يراها.
لكنه لم يستسلم.

أكمل دراسته رغم الصعوبات.
واعتنى بإخوته وأخواته.
وساعد أمه قدر ما استطاع.
وحاول أن يمنح أسرته شعورًا بالأمان، حتى حين كان هو نفسه بحاجة إلى
من يطمئنه.
هكذا يعيش بعض الأطفال...
لا يكبرون مع الأيام فقط.
بل تكبرهم الظروف.
فتمنحهم من المسؤوليات ما لا يُعطى لكثير من الرجال.
فيتعلمون مبكرًا أن الحياة ليست دائمًا كما نتمنى.
وأن بعض الأطفال لا يرثون الألعاب...
بل يرثون الأعباء.

✧ الشهادة التي انتظرها أكثر مني ✧

سنوات طويلة قضاها والده في الغربة.

يستيقظ قبل شروق الشمس، ويعود منهكا آخر النهار، يحمل التعب في جسده، لكن قلبه كان معلقا بعائلته البعيدة.

لم يكن يحلم لنفسه بالكثير.

كان حلمه بسيطاً:

أن تعيش أسرته بكرامة، وأن يرى ابنه يحمل شهادة الجامعة.

كلما اتصل بابنه، كان أول ما يسأله:

"كيف الدراسة؟"

وكان يفرح بكل نجاح يحققه، وكأنه نجاحه هو.

يرسل المال رغم حاجته، ويحرم نفسه من أشياء كثيرة، حتى لا يحتاج ابنه إلى ترك الجامعة أو تأجيل حلمه.

وكان يقول له دائماً:

"اجتهد يا ولدي... أريد أن أراك يوم التخرج."

ثم يضحك ويضيف:

"وعندي لك هدية جميلة في ذلك اليوم."

وكان الابن يبتسم، مؤمناً أن ذلك اليوم سيأتي، وأن والده سيكون أول الحاضرين.

لكن الحياة لا تعطي الجميع ما يتمنون.

رحل الأب قبل التخرج.
رحل بعد سنوات طويلة من الكفاح والتعب والغربة.
رحل قبل أن يرى الحلم الذي عاش من أجله يكتمل.
ومرت الأيام...
حتى جاء موعد حفل التخرج.
امتلأت القاعة بالطلاب وأسرههم.
الكاميرات.
الورود.
الابتسامات.
والدعوات التي وُزعت على الأقارب والأصدقاء.
كان الجميع يستعدون للفرح.
أما هو...
فكان يحمل فرحًا ناقصًا.
جلس بين زملائه، لكن قلبه لم يكن معهم.
كان يفكر في رجل بعيد، رجل أفنى عمره كله ليصل هو إلى هذه اللحظة.
وحين بدأ الحفل، كان ينظر بين الوجوه.
مرة...
ومرتين...
وعشرات المرات.
كأنه نسي اللحظة أن والده رحل.

كأنه ما زال يتوقع أن يراه يدخل من الباب متأخرًا، يحمل ابتسامته المعتادة، ويبحث عنه بين الخريجين.

كان ينظر إلى الآباء وهم يقفون لالتقاط الصور مع أبنائهم.

ويرى العيون الممتلئة بالفخر.

فشعر بشيء يعتصر قلبه.

ليس لأنه تخرج...

بل لأن الشخص الذي انتظر هذا اليوم أكثر منه لم يكن موجودًا.

وحين نادوا اسمه لاستلام الشهادة، مشى بخطوات ثابتة.

لكن داخله كان طفلًا صغيرًا يبحث عن أبيه.

تسلم شهادته.

صفق الحاضرون.

وابتسم للكاميرات.

ثم رفع عينيه نحو السماء بصمت.

وكانه يقول:

"لقد فعلتها يا أبي."

"تخرجت كما كنت تريد."

"لكنني كنت أحتاج أن أراك هنا."

وفي تلك اللحظة...

فهم معنى أن بعض الناس يرحلون بأجسادهم، لكنهم يبقون حاضرين في أهم لحظات العمر.

لأن هناك مقاعد تبقى فارغة...

ولا يجلس فيها أحد بعد أصحابها.

✧ خاتمة الفصل ✧

في نهاية هذه الحكايات...

لا نجد قصة واحدة تنتهي، بل نجد قلوبًا كثيرة تعلّمت كيف تكمل الطريق رغم النقص.

طفلٌ كبر قبل أن يسمح له العمر أن يلهو، وفتاةٌ انتظرت كلمة لم تأت، وابنٌ حمل مسؤولية بيتٍ أكبر من يديه، وآخر ظلّ يبحث في الوجوه عن وجهٍ غائب، وآخر تخرّج وفي قلبه مقعدٌ لم يُملأ.

تختلف الأسماء... وتختلف التفاصيل... لكن الشعور واحد.

فراغٌ لا يُرى، لكنّه يُحس في كل لحظة صمت، وفي كل مناسبة ناقصة، وفي كل فرحة كان يجب أن تكتمل بوجود شخص واحد.

ومع ذلك...

لم تكن هذه الطفولة ضعفًا.

بل كانت صبرًا يتعلّم المشي، وقلوبًا تنمو على الألم دون أن تفقد إنسانيتها، وأرواحًا صغيرة اضطرت أن تكبر قبل أوانها... لكنها لم تنكسر.

فبعض الآباء يغيبون عن الحياة، لكنهم يظلون حاضرون في قرارات أبنائهم، وفي تعبهم، وفي طريقتهم في الصبر، وكأن الغياب نفسه ترك لهم قوة لا ترى.

وهكذا...

تنتهي قصص هذا الفصل، لكن لا تنتهي آثارها.

لأن "طفولة بلا أب" ليست حكاية تروى وتنتهي، بل حياة تحمل في القلب،
وتكمل طريقها بهدوء...

حتى تصبح الطفولة، ذكرى... وصبراً... وبدايةً لحياةٍ مختلفة.

الأمل الذي لا يموت:

“إن مع العسر يسراً... ليس الأمل شعوراً عابراً، بل ضوءٌ خافت يسكن في آخر العتمة، كلما ظنَّ القلب أنه انطفأ، عاد ليقول: ما زلتُ هنا.”

_رحمة محمد

❖ الأمل الذي لا يموت ❖

ليس كل ما في الحياة يُقاس بما فقدناه...

فبعض الأشياء الجميلة تولد بعد العواصف، وبعض القلوب تتعلم النهوض بعدما ظنت أنها لن تقوى على الوقوف من جديد.

قد تمرّ بنا أيام نظن أن الحزن انتصر فيها، وأن الطريق أصبح أطول من أن يُحتمل، لكن شيئًا خفيًا يبقى حيًا في أعماقنا، يرفض الاستسلام، ويهمس لنا كلما أثقلتنا الحياة:

"ما زال هناك غد."

إن مع العسر يُسرًا...

وليس الأمل شعورًا عابرًا، بل نورٌ صغير يسكن القلب، يبقى مشتعلًا مهما اشتدت الرياح، ويقودنا نحو الأيام التي لم تأت بعد.

في هذا الفصل...

نبتعد قليلًا عن الوجد، لا لأننا نسيناه، بل لأن الحياة ليست حزنًا فقط.

سنمشي بين الجبال التي تعلم الصبر، وبين المطر الذي يغسل الأرواح قبل الطرقات، وبين وجوه الناس وهم يصنعون الفرح من أبسط الأشياء.

سنرى كيف تستطيع الأرض أن تزهر بعد الجفاف، وكيف يستطيع الإنسان أن يبتسم بعد التعب، وكيف يبقى الأمل حيًا حتى في أكثر اللحظات قسوة.

فهناك دائمًا نافذة يمر منها الضوء، ودعوة لم تضع عند الله، وحلم ينتظر وقته ليكبر.

وهكذا...

إذا كان الفصل السابق يحكي عن الغياب وما تركه في القلوب، فإن هذا الفصل يحكي عن الأشياء التي أبقت تلك القلوب حيّة.

عن الأمل...

ذلك الذي لا يموت. ::::

❖ وطنٌ يتكئ على الجبال ❖

ليست كلُّ البلاد ترى...

بعضها يُحَسّ.

بلادي لا تقاس بالمسافات،

ولا تختصر في اسمٍ على خريطة،

بل تختصر في رعشة خفيفة

تصيب القلب كلما مرّ طيفها.

هناك...

حيثُ تصعد البيوتُ على سفح الجبل

وكانها تسابق الغيم،

لا لأن الأرض ضاقت بها،

بل لأن أهلها اعتادوا العلوّ.

الجبلُ ليس خلفية للصورة،

هو العمود الفقري للروح.
واقفٌ منذ قرون،
يرى الولادات، والوداعات،
الأفراح التي تشتعل كالفوانيس،
والأحزان التي تمرّ كغيمةٍ ثقيلة،
ولا ينحني.
البيوتُ هنا ليست متشابهة،
لكنها متألّفة.
حجارةٌ طينية،
نوافذ صغيرة،
أسطحٌ مسطّحة تنتظر المطر.
كلُّ بيتٍ منها يحمل قصة أمّ
كانت تنادي أبناءها عند الغروب،
وقصة أبٍ عاد متعبًا
ووضع همومه عند الباب.
في المساء،
حين تلامس الشمسُ الجدران،
يتحوّل الطينُ إلى ذهب،
ويصبح الضوءُ صلاةً صامتةً
على وجه المدينة.

الأزقة الضيقة

ليست اختناقاً،

بل ألفة.

كلُّ عابرٍ يعرفُ الآخر،

وكلُّ نافذةٍ تحفظُ أسرارَ الحيّ،

والسلامُ لا يُقالُ بلسانٍ فقط،

بل بنظرةٍ طويلةٍ دافئة.

هنا...

كبرنا ونحن نتعلم

أن الصعودَ ليس خياراً،

بل طبيعة.

أن من يسكنُ الجبل

لا يخافُ الطريق،

ولا يهابُ التعب.

وإن سألتني:

ما الوطن؟

قلتُ:

هو ذاك المشهد حين تقفين بعيداً

فتشاهدين البيوتَ مترابطة

كأنها قلبٌ واحد.

هو الجبل الذي يحملها
ولا يشتكي.
هو الضوء الذي يزورنا كل مساء
ويذكرنا
أن بعد كل ظلمةٍ
موعداً مع دفء.
بلادي...
قد لا تكون الأغنى،
ولا الأهدأ،
ولا الأسهل حياةً،
لكنها الأصدق.
فيها تعبٌ يشبهنا،
وصبرٌ يشبه أمهاتنا،
وعنادٌ يشبه الجبال التي ربّتنا.
وحين أبتعد...
أحملها معي.
في لهجتي،
في دعائي،
في الطريقة التي أشتاق بها.
ليست بلادي مكاناً أعود إليه،

بل شيءٌ يسكنني.
شيءٌ إن ضاقت بي الدنيا،
أغمضت عينيَّ
فرأيتُ الجبل...
وعرفتُ أنني ما زلتُ ثابتة.

❖سيمفونية المطر❖

قبل المطر، للسماء هيئة مختلفة؛
تتلبد بالغيوم كأنها تحمل سرًا كبيرًا،
ويهبّ الهواء نقيًا، يلعب الأشجار ويملأ الصدور بعبيره العذب،
نتنقسه براحة، بلا ذرة غبار، وكأن الأرض قد غُسلت قبل أن تغسل.
الأطفال يركضون ضاحكين، يتنقلون من مكان إلى آخر،
وأصوات ضحكاتهم تملأ الأرجاء حياة وبهجة.

على الأسطح، يبدأ الاستعداد؛
أيدي تكتس وتنظف بوجهٍ رحب، انتظارًا لماء المطر،
ذلك المصدر الأساسي للحياة.
تسحب الملابس والأفرشة التي عانقت الشمس،

وتقام الحواجز المائية المتصلة بالسدود والآبار،
فالجميع يعرف قيمة اللحظة القادمة.

ثم... تأتي اللحظة.

تتساقط قطرات المطر كحبات اللؤلؤ،
قليلة في البداية، ثم تزداد رويداً رويداً،
ويكبر معها الفرح في قلوب الناس.
يمر وقت قصير حتى تنقضي المياه الأولى،
وحين تصفو المياه، يخرج الناس بخزاناتهم،
يخزنون المطر، ويحتجزونه على الأسطح،
بين ضحكٍ ولعبٍ وفرحٍ يفيض عن الوجوه.

في الأحواش، تنتظر العائلات الماء الصافي،
تبتلّ الشعور والملابس،

والماء ينهمر عليهم وهم يضحكون،
فلا يفرّقون بين اللعب والعمل.

تغسل الأغذية والبطانيات،

وتختلط رغوة الصابون بماء المطر،
فيصبح التنظيف متعة لا تعباً.

تعلق الأقمشة على الجدران لتجف،

وتفتح النوافذ لتكشف مشهداً أخّاداً.

المدرجات الزراعية تمتلئ بالماء،

وينتقل من مدرّج إلى آخر،

كشالات صغيرة تنساب بهدوء.

الأشجار تتلألأ،

والطرق الضيقة بين الحارات تسيل منها المياه،

وصوت خريرها يمتزج بنزول المطر وهبوب الهواء،

في مشهد لا يُملّ.

ينتهي المطر،

ويرتدي الجميع ملابس جافة،

ويتبادل الجيران السؤال والاطمئنان:

كيف المطر؟ كيف حالكم؟

وجوه سعيدة، وقلوب مطمئنة.

خزانات امتلأت، وأيدي ما زالت تغرف الماء بامتنان.

يظهر قوس قزح فوق الجبال الشاهقة،

يزينها بألوانه،

وما زال صوت الماء المنحدر من الجبال يُسمع.

الأرض نظيفة،
والأشجار أكثر خضرة،
تشرق الشمس بعد المطر،
ويا الله... ما أجملها!
جمالٌ خلاب،
تنعكس أشعتها على الجبال والأحجار لشدة صفائها.

يخرج الناس للتنزه،
يوثقون الشلالات بهواتفهم،
يلتقطون الصور،
وكانهم يخشون أن يضيع هذا الجمال دون ذاكرة.

يأتي الليل هادئاً،
سما صافية معتمة،
ملينة بالنجوم المضيئة.
جبال عالية ثرى من بعيد،
تتألأ مصابيحها في العتمة،
فتشبه السماء حين تمتلئ بالنجوم.
الأشجار والأعشاب يلاعبها الهواء،
وصوتها يهمس في السكون.

الأرض مبتلة،
ورائحة المطر تعبق في المكان،
وهواءٌ ينعش الروح ويملاً الأرجاء.

وينام الجميع...

والأرض ما تزال تحتفظ ببلل المطر، والهواء يحمل رائحته في الأزقة
والحقول، وتبقى القلوب مطمئنة، كأن السماء مرّت من هنا، وورّعت شيئاً من
الرحمة على كل شيء.

✧ مدرجات تصعد نحو السماء ✧

في جبال اليمن...

لا تبدو الأرض كما في بقية الأماكن.

هنا، لا تقف الجبال صامتة بين السماء والوديان، بل تروي حكاياتٍ طويلة
كتبت بالحجر والمطر والصبر.

على سفوحها الشاهقة، تمتد المدرجات الزراعية كأنها سلالم خضراء تصعد
نحو السماء.

مدرجاتٌ صنعها إنسانٌ بسيطٌ بيديه، لكنه حمل في قلبه إرادةً أكبر من الجبل نفسه.

حجرٌ فوق حجر.

ومدرجٌ فوق مدرج.

وسنواتٌ طويلة من الكفاح والعمل حتى تحولت المنحدرات القاسية إلى حقول تنبض بالحياة.

كل حجر وُضع في مكانه كان قصة تعب.

وكل قطرة ماء احتُفظ بها بين تلك المدرجات كانت وعدًا بموسمٍ جديد.

وحين يهطل المطر، تمتلئ الحقول بالماء، فتتحول الجبال إلى مرايا واسعة تعكس الغيوم ونور السماء.

وكان الأرض ترفع رأسها نحو الأعلى وتقول:

"نحن هنا..."

ما زلنا نحيا."

ولم تبنَ هذه المدرجات في يومٍ أو عام.

بل هي إرثُ أجيالٍ متعاقبة.

ورثها الأبناء عن الآباء، كما توارث الأمانات الثمينة.

حافظوا عليها، وأعادوا ترميمها، وسقوها بجهدهم وعرقهم، حتى بقيت
شامخةً على سفوح الجبال رغم تعاقب السنين.

ولهذا...

حين ينظر الإنسان إلى هذه المدرجات، لا يرى حقولاً فقط.

بل يرى قصة شعبٍ كامل.

شعبٌ علمته الطبيعة معنى الصبر، فحوّل الصخر إلى حياة، والمنحدرات إلى
رزق، والتحديات إلى إنجازٍ يبقى شاهداً عبر الزمن.

وهكذا تبقى جبال اليمن...

شاهدة على أن الإنسان إذا أحب أرضه حقًا، لا يرى في الصخور عائقًا، بل فرصة ليصنع منها حياة.

فمن بين الحجر يولد الزرع.

ومن بين المشقة يولد الأمل.

وتبقى المدرجات المعلقة على الجبال حكاية خالدة، تروي للأجيال كيف استطاع الإنسان أن يصادق الجبل، ويترك على سفوحه أثرًا لا يزول.

✧ ليلة رمضان في الحارة ✧

قبل أن يأتي رمضان...

كان يعيش في خيالنا طفلًا أكثر منه شهرًا.

كنا ننتظره بشوق لا يوصف، ونكثر من الأسئلة كل يوم:

"متى سيأتي رمضان؟"

"أين أصبح الآن؟"

فتبتسم أمهاتنا ويبدأن في سرد الحكاية التي كبرنا عليها.

يقلن لنا:

"ما زال في مدينةٍ بعيدة."

وفي اليوم التالي نسأل من جديد:

"هل اقترب؟"

فتأتينا الإجابة:

"نعم... لقد غادر تلك المدينة، وهو الآن عند قوم آخرين."

وكنا نصدق ذلك بكل قلوبنا.

نتخيله ضيقًا كريمًا ينتقل من بيتٍ إلى بيت، ومن قريةٍ إلى قرية، ومن مدينةٍ إلى أخرى، حتى يصل إلينا.

ومع اقتراب نهاية شعبان، يزداد شوقنا أكثر.

حتى إذا جاء اليوم التاسع والعشرون، قيل لنا:

"غداً سيصل رمضان."

فنفرح وكأننا ننتظر شخصًا عزيزًا غاب طويلاً.

ثم تضيف أمهاتنا:

"سيبقى عندنا ثلاثين يومًا لأنه يحبنا."

فنمضي الليل نعد الساعات، وننتظر قدومه بفارغ الصبر.

ولم يتوقف وجود رمضان في خيالنا عند هذا الحد.

فعندما يحين وقت السحور، ويصعب على الأطفال الاستيقاظ، كانت أمهاتنا يوقظننا بقولهن:

"قوموا... رمضان جاء يناديكم."

فنفتح أعيننا بسرعة، ونبحث عنه حولنا.

وحين نسأل:

"أين رمضان؟"

يأتينا الجواب:

"لقد جاء، ونادى كل واحدٍ باسمه، ثم ذهب ليوقظ بقية الأطفال."

فنبتسم ونقوم للسحور، مقتنعين تمامًا أن رمضان مرّ من هنا قبل قليل.

كانت أيامًا بسيطة...

لكنها جعلتنا نحب رمضان قبل أن نفهم معاني الصيام.

ونشتاق إليه قبل أن ندرك فضائله.

فكبرنا...

وبقي ذلك الشوق الصغير يسكن قلوبنا كلما اقترب الشهر المبارك.
قبل مجيء رمضان، تبدأ التحضيرات في كل البيوت: تجديد وترتيب المنزل، تجهيز أدوات الصلاة، السجادات، الملابس الخاصة بالعبادة، والمصحف. وفي الأيام العادية تكون هذه الأمور روتينًا، لكن في رمضان تزداد فرحة الاستعدادات.

مع قدوم الليلة الأولى من رمضان، قبل أذان المغرب، تفتح الأبواب والشبابيك لترحب بالشهر الفضيل. منذ الصغر، كنا نتسابق نحن والجيران لنكون أول من يستقبل رمضان في بيوتنا، ويمتزج صراخنا وضحكنا في الهواء:

"جاء رمضان! جاء رمضان!"

ثم نذهب لأداء الوضوء، ونصلي المغرب وقد أعد كل شيء مسبقًا. بعد دقائق يسمع صوت أذان العشاء، ونستعد لصلاة التراويح جماعة مع الجيران، حيث تتردد آيات القرآن الكريم من المساجد وتملأ الأجواء بالسكينة والفرحة.

وعند انتهاء صلاة التراويح، يعود كلٌ إلى بيته، لكن الليل لم يكن ينتهي عند هذا الحد.

فقد كان هناك سباقٌ جميل يبدأ كل ليلة...

سباقٌ في قراءة القرآن.

يتنافس الجميع في ختمه، ويتسابقون في عدد الأجزاء والصفحات، لا طلبًا للمفاخرة، بل حبًا لهذا الشهر المبارك الذي لا يشبه غيره من الشهور.

وكانت البيوت تظل مضاءة حتى وقت متأخر، وبين نافذة وأخرى، وبيت

وآخر، كانت أصوات التلاوة تتسلل بهدوء في أرجاء الحارة، فتمنح الليل سكوناً لا توصف.

أما وقت السحور، فكان له جمال آخر.

لم تكن الأبواب تغلق على أصحابها فقط، بل كانت القلوب مفتوحة للجميع. فإذا اقترب وقت السحور، بدأ النداء بين الجيران.

ينادي هذا على جاره:

"صحيتوا للسحور؟"

ويرد الآخر من بعيد:

"نعم... الحمد لله."

ثم ينتقل النداء إلى بيت آخر، وآخر، حتى يطمئن الجميع أن أحداً لم يغلبه النوم ويفوته السحور.

وكان الحارة كلها أسرة واحدة، يستيقظ بعضها لبعض، ويعين بعضها بعضاً على الطاعة.

كانت أياماً بسيطة...

لكنها مليئة بالمحبة التي لا تشتري، والدفء الذي لا تصنعه إلا القلوب الصادقة.

وقبل الإفطار، هناك جمال آخر: تجهيز الأكلات الرمضانية الخاصة، من التمر والقهوة والشفوت والعصائر إلى السمبوسة وغيرها. كل واحد يحمل شيئاً من بيته إلى المسجد، وبعد الصلاة يجتمع الجميع لتكوين مائدة الإفطار المشتركة، حيث يتشارك الكبار والصغار الفرح والطعام، وتكتمل روح الجماعة والدفء.

✧ الأسواق في اليمن ✧

للأسواق في اليمن روحٌ مختلفة...

فما إن تخطو أولى خطواتك داخل السوق حتى تشعر أنك دخلت عالماً كاملاً من الألوان والأصوات والروائح.

البسطات تمتد على جانبي الطريق، والباعة ينادون على بضائعهم بأصواتٍ تتداخل حتى تصبح جزءاً من موسيقى المكان.

هذا ينادي على الفواكه الطازجة،

وذاك يروج للخضروات التي قطفت صباحاً،

وثالث يعرض ما لديه من محاصيل الموسم.

ترى الرمان يتجاور مع العنب،

والخوخ إلى جانب المشمش،

والبرتقال واليوسفي والليمون يملؤون المكان بألوانهم الزاهية وروائحهم المنعشة.

وما يميزها أكثر أنها ثمارٌ جاءت من أرض اليمن نفسها،

نمت تحت شمسها،

وشربت من مائها،
ووصلت إلى الأسواق طازجة كما خلقتها الطبيعة.

وفي زاوية أخرى،
تتراكم أكياس اللوز والفسق والزيب بأنواعه،
وتفوح منها رائحة المواسم والخيرات.

أما السمك،
فله سوقه الخاص الذي يعكس نعمة البحرين اللذين يحيطان باليمن؛
البحر الأحمر وخليج عدن.

وهناك أيضاً منتجات المزارع والبيوت،
حيث يفضل كثير من الناس ما رُبّي بعناية في القرى والمنازل.

ثم يأخذك السوق إلى عالم آخر...

عالم العسل اليمني.

عسل السدر،
وعسل السمر،

وعسل المراعي،
والعسل السقطري،
أنواعٌ اشتهرت بجودتها حتى تجاوز صيتها حدود البلاد.

وإذا تابعت السير بين أزقة السوق، ستجد وجهًا آخر من وجوه اليمن.
هناك تلمع قطع الفضة إلى جانب العقيق اليماني بألوانه المختلفة، وتفوح
روائح البخور المصنوع بأيدي ماهرة، تحمل عبق التراث وذكريات الأجداد.
وعلى مقربة منها تتزين الواجهات بالجنابي والخناجر اليمانية، بأغمادها
المنقوشة وزخارفها الجميلة، وكأنها تحفٌ فنية تروي حكاية أجيال متعاقبة.
فالجنبية ليست مجرد قطعة تحمل، بل رمزٌ من رموز الهوية اليمانية، وجزءٌ
أصيل من التراث الذي يفخر به اليمنيون منذ مئات السنين.
وفي بعض الأسواق، تشاهد أنواعًا مختلفة من الأسلحة معروضة بين بقية
البضائع، في مشهد اعتاده الناس وأصبح جزءًا من صورة السوق الشعبي
اليمني، حتى تبدو وكأنها سلعة من سلع الحياة اليومية.
وهكذا تمضي بين محلات العسل والبخور، والعقيق والفضة، والجنابي
والخناجر، فتشعر أن السوق لا يبيع البضائع فقط...
بل يعرض تاريخًا كاملاً، وتراثًا حيًا، وصورة مصعرة لوطن عريق.

وحين تقترب المواسم تكون لسوق حكاية أخرى

فإذا اقترب رمضان ، تغير كل شيء.

تتزين المحلات والبسطات بالفوانيس والملصقات الرمضانية، وتعرض أدوات المطبخ والصحون الجديدة استعدادًا للشهر الكريم.

وتزدحم الأسواق بكل ما اعتاده اليمنيون على موائد رمضان.

أكياس الشوفان.

والكاستر.

والتمر.

ورقائق السمبوسة.

والعصائر بمختلف أنواعها.

وغيرها من الأشياء التي لا تكاد تخلو منها البيوت في ذلك الشهر المبارك.

ومع ازدحام الناس، وروائح البهارات، وأصوات الباعة، وألوان البضائع المتنوعة...

يشعر الزائر أن السوق لا يبيع حاجات الناس فقط،

بل يشاركهم أفراحهم أيضاً.

ففي رمضان يعيش معهم روح الشهر،

أما إذا اقترب العيد، تغير كل شيء

تمتلئ الشوارع بالناس، وتزداد الحركة حتى يبدو السوق وكأنه لا ينام.

الباعة ينادون بأصواتٍ عالية:

"أعيدت... أعيدت..."

أي أن العيد قد اقترب.

فتنتقل الفرحة من صوتٍ إلى آخر، ومن وجهٍ إلى وجه.

الابتسامات مرسومة على الجميع.

الأطفال يجرون آباءهم بين المحلات.

والعائلات تنتقل بحثًا عن ملابس العيد، والهدايا، وكل ما يجعل المناسبة أجمل.

وتتحول البسطات إلى عالم من الألوان.

الألعاب النارية تملأ المكان بأشكالها المختلفة، معلنةً اقتراب أيام الفرح.

وفي العيد يحتفل معهم بقدوم الفرح.

في السوق اليمني لا تشتري حاجتك فقط...

بل تعيش حكاية كاملة.

حكاية أرضٍ معطاءة،

وأيدٍ تعمل،

وأصواتٍ تنبض بالحياة.

ولهذا تبقى الأسواق في اليمن أكثر من مجرد أماكن للبيع والشراء...

إنها صورة مصغرة للوطن نفسه.

✧ ليلة العيد ✧

تبدأ فرحة العيد قبل أن تشرق شمسُه.

فمنذ اللحظات الأخيرة من رمضان، تتغير ملامح القرى والحارات، وكأن الجميع يستعد لتوديع ضيفٍ عزيز، واستقبال فرحةٍ انتظروها طويلاً.

ومع انتهاء الإفطار في آخر يوم من رمضان، وصلاة المغرب، تبدأ الأجواء التي لا تشبه أي ليلة أخرى.

فجأة تمتلئ الأرجاء بالأصوات.

أصوات الألعاب النارية تتردد بين الجبال والبيوت، وصيحات الأطفال تملأ المكان فرحاً وابتهاجاً.

يخرج الناس إلى الأحواش والأسطح، يتابعون مشاهد الاحتفال التي اعتادوا عليها عامًا بعد عام، بينما تتجه عيون الأطفال إلى السماء في انتظار أول شرارة تعلن أن العيد قد اقترب.

وما يكاد الظلام يكتمل حتى تبدأ السماء بالتزين.

ألوانٌ مضيئة تتصاعد نحو الأعلى، ثم تتفتح في الهواء كزهورٍ من نور،
فيتسابق الأطفال لمشاهدتها، وتعلو ضحكاتهم مع كل ومضةٍ جديدة.

وكان لكل بيت نصيبه من الألعاب النارية.

يحملها الأطفال بفخر، ويتشاركون فرحة العيد القادمة، فتختلط أصوات
الألعاب بضحكاتهم، ويصبح المكان كله أشبه بمهرجانٍ صغير.

ولم تكن الألعاب النارية وحدها من تعلن قدوم العيد.

فقد كانت هناك عادة جميلة ننتظرها كل عام.

نجمع علب الصلصة المعدنية الفارغة قبل العيد بأيام، ونحتفظ بها بعناية
حتى يحين موعد الاحتفال.

نملؤها بالرماد لتثبيتها، ثم نضع فيها القليل من القاز، ونرتبها على امتداد
حواف الأسطح والجدران.

ومع مغرب آخر يوم من رمضان، تشعل واحدة تلو الأخرى.

فتتحول حواف البيوت إلى خطوطٍ من الضوء، تمتد في العتمة كأنها عقودٌ
من النجوم تزين القرية كلها.

ومن بعيد، تبدو البيوت وكأنها ترتدي ثوبًا من النور احتفالًا بقدوم العيد.

وكنا نقف نتأمل ذلك المشهد بفرح كبير، ونشعر أن العيد قد وصل فعلًا حين تشتعل تلك الأضواء فوق الأسطح.

أما في الجبال البعيدة، فكان هناك مشهدٌ آخر لا يقل جمالًا.

قبل العيد بأيام، يجمع الأطفال والشباب الحطب وكل ما يمكن أن يشتعل.

يصنعون منه أكوامًا كبيرة فوق المرتفعات والتلال.

ومع مغرب آخر يوم من رمضان، تشتعل تلك النيران.

فتظهر ألسنة اللهب من بعيد فوق الجبال، وكأنها رسائل فرح تتبادلها القرى فيما بينها.

وكان الأطفال يتباهون بحجمها.

فكلما كانت النار أكبر، كانت الفرحة أكبر، وكان الفخر بها أشد.

فتتوهج الجبال في العتمة، وتنعكس الأضواء على الوجوه المبتسمة، بينما الجميع ينتظر صباح العيد بشوق.

وفي تلك الليلة...

كان النوم آخر ما يفكر فيه الأطفال.

فكيف ينام قلبٌ صغير، وهو يرى السماء تتلأأ بالألعاب النارية، والبيوت تتزين بالأضواء، والجبال تشتعل بالفرح من بعيد؟

وكيف تغفو عينٌ صغيرة...

تعرف أن العيد سيأتي مع أول خيوط الفجر؟

✧ صباح العيد ✧

منذ ليلة العيد، لا يعود النوم كما كان.

فالفرحة التي انتظرها الأطفال شهرًا كاملاً تكون أكبر من أن تسمح لأعينهم بالاستسلام للنوم بسهولة.

في البيوت تستمر الاستعدادات حتى وقتٍ متأخر.

تجهز الحلويات وما تيسر من الكيك، وترتب المجالس لاستقبال الضيوف، وتنظف البيوت وكأنها تستعد لاستقبال مناسبةٍ لا تتكرر إلا مرةً في العام.

أما الفتيات، فلهن فرحتهن الخاصة.

تجهز الحناء، وترسم النقوش على الأيدي والأقدام، وتجلس الصغيرات يتأملنها بين الحين والآخر، منتظرات صباح العيد بفارغ الصبر.

وفي الخارج، كانت أصوات الاحتفال ما تزال تتردد بين البيوت والجبال، بينما الأطفال يعدّون الساعات المتبقية لوصول العيد.

كان الليل يبدو طويلًا جدًا...

وكان الفجر تأخر أكثر من المعتاد.

لكن ما إن يقترب مواعده حتى تستيقظ البيوت كلها.

فلا يكاد يُسمع أذان الفجر حتى يكون الجميع على أقدامهم.

الصغار قبل الكبار.

والأطفال قبل الجميع.

وكانهم لم يناموا أصلاً.

بعد الصلاة تبدأ الحركة في كل بيت.

يزدحم الحمام بأصحابه، وكل واحد يريد أن يكون أول من ينتهي استعداداً للخروج.

تخرج الملابس الجديدة التي انتظرها أصحابها طويلاً.

وتفوح روائح العطور والبخور في الأرجاء.

وحين يكتمل الاستعداد، يُبَخَّر الصغار والكبار قبل خروجهم، فتختلط رائحة البخور بفرحة العيد التي تملأ المكان.

يحمل الرجال سجاداتهم ويتجهون إلى مصليات العيد في الساحات الواسعة.

ترى الثياب البيضاء الناصعة، والجنابي التي تزين خصور الرجال، في مشهدٍ يحمل شيئاً من هيبة العيد وجمال التراث.

وترتفع التكبيرات من كل مكان.

فتشعر أن الفرح يملأ الأرض كلها.

وبعد انتهاء الصلاة تبدأ الزيارات.

تفتح الأبواب منذ الصباح، ويتنقل الناس بين بيوت الأقارب والجيران يتبادلون التهاني والدعوات.

وكانت موائد العيد قديماً تحمل الخمير المصنوع من الذرة مع العسل، أو اللحوح مع اللحم والمرق، إكراماً لكل زائر.

أما اليوم، فقد حلت أطباق الكيك والمكسرات والعصائر محل كثير من تلك العادات القديمة، لكن روح الكرم ما زالت كما هي.

ويبقى أكثر ما ينتظره الأطفال...

العيدية.

ذلك الكنز الصغير الذي يجعل العيد عيداً في عيونهم.

يتسابقون بين البيوت، يعايدون هذا وذاك، ويحملون في أيديهم ما جمعه
من العيديات والساكر والمكسرات.

وتزداد فرحة الصغيرات حين تمتد نظرات الإعجاب إلى ملابسهن الجديدة
ونقوش الحناء التي تزين أيديهن.

يمضي اليوم سريعاً...

أسرع مما يتمنى الأطفال.

لكن شيئاً منه يبقى في القلب.

يبقى صوت التكبيرات.

ورائحة البخور.

وابتسامات الأقارب.

والأيدي الممدودة بالعيدية.

ويبقى ذلك الشعور الدافئ الذي لا ينساه أحد.

فالأعياد الجميلة لا تنتهي بانتهاء يومها...

بل تبقى تعيش في الذاكرة سنواتٍ طويلة.

ولهذا، كلما كبرنا، أدركنا أن أجمل ما في العيد لم يكن ما نحصل عليه...

بل تلك اللحظات البسيطة التي عشناها مع من نحب.

❖ خاتمة الفصل ❖

وهكذا تمضي الأيام...

يمضي رمضان، ويأتي العيد، وتتبدل الفصول، وتكبر الأجيال.

لكن بعض الأشياء تبقى كما هي.

تبقى رائحة الأرض بعد المطر.

وتبقى أصوات الأطفال وهم ينتظرون الفرح.

وتبقى الحكايات التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا.

وتبقى تلك التفاصيل الصغيرة التي صنعت ذاكرتنا وشكلت حبنا لهذا الوطن.

فالأمل لا يعيش في الكلمات الكبيرة فقط...

بل يسكن في الأشياء البسيطة التي تتكرر كل يوم.

في يد مزارع يزرع أرضه.

وفي أم تفتح باب بيتها لضيفٍ عابر.

وفي طفل ينتظر العيد وكأنه أول عيدٍ في حياته.

ولهذا...

مهما تغيرت الأيام،

يبقى في القلب نورٌ صغير لا ينطفئ.

ذلك النور...

هو الأمل.

✧ رسالة إلى الوطن ✧

يا وطني...

لا أعرف كيف تكتب الرسائل إلى الأوطان.

فالأوطان ليست كلماتٍ تجمع على الورق، ولا سطورًا تنتهي عند آخر الصفحة.

الأوطان تعيش فينا أكثر مما نعيش فيها.

ولهذا، كلما حاولت أن أكتب لك، وجدتني أكتب عن أهلك.

عن الأم التي انتظرت طويلاً.

وعن الأب الذي حمل عمره في الغربة من أجل أبنائه.

وعن الطفل الذي كبر قبل أوانه.

وعن القلوب التي تعلمت الصبر، لأنها لم تجد خياراً غيره.

كنت أظن أنني أكتب قصصاً متفرقة...

ثم أدركت أنني كنت أكتبك أنت.

فأنت لست أرضاً فقط.

ولا حدوداً مرسومة على الخريطة.

أنت الذكريات التي كبرنا معها.

والأماكن التي تركت أثرها في أرواحنا.

والوجوه التي أحببناها، وما زلنا نحملها معنا أينما ذهبنا.

يا وطني...

أعلم أن أيامك اليوم ليست كما نتمنى.

وأعلم أن أبناءك يحملون من الهموم ما يثقل القلوب.

لكنني كلما تذكرت جبالك الشامخة، وتاريخك العظيم، ومدرجاتك الخضراء،
وقلوب أهلك الطيبة، أدركت أن فيك شيئاً لا ينكسر.

شيئاً يشبه الصبر.

ويشبه الكرامة.

ويشبه الأمل الذي بقي حياً في صدور أبنائك عبر الأجيال.

فأنت لست وطناً بلا تاريخ.

بل أرض حضاراتٍ عظيمة، تعاقبت عليها القرون، ومرّت بها أممٌ وملوك،
وترك كل جيل فيها أثره.

وأنت الأرض التي وصفها الله بقوله:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۚ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

وحين أتذكر ذلك كله...

لا أنظر إلى الماضي بحسرة.

بل أنظر إليه بأمل وفخر.

فالأرض التي كانت يوماً موطنًا للحضارة والعمران، قادرة بإذن الله أن تنهض
من جديد.

وربما نعيش اليوم زمناً من الضيق.

وربما أثقلت السنوات قلوب كثيرين.

لكن الأيام لا تبقى على حال.

وما دام في أبنائك من يحبك، ويصبر لأجلك، ويحلم بمستقبل أجمل لك،
فسيبقى الأمل حيًا.

يا وطني...

كتبت عنك كثيرًا، ومع ذلك أشعر أن الكلمات ما زالت أقل من أن تصف
مكانتك في القلب.

لكنني أكتفي بأن أقول:

شكرًا لكل ذكرى منحتني إياها.

وشكرًا لكل حكاية وُلدت على أرضك.

وشكرًا لأنك علمتنا أن الحب الحقيقي لا يحتاج إلى أسباب.

فبعض الأوطان لا نحبها لأنها كاملة...

بل نحبها لأنها وطننا.

وستبقى...

مهما ابتعدنا عنها،

ومهما تغيّرت الأيام،

أقرب الأماكن إلى قلوبنا.

وسيظل الدعاء يسبق الكلام كلما ذُكرت:

حفظك الله يا يمن...

وأعاد إليك ما تستحقه من أمن وخير وازدهار

الوطن ليس شيئاً
تكتب عنه...
بل شعوراً تكتب منه.

